

الإبداع وعلاقته ببعض المتغيرات  
الثقافية والديمقراطية والاجتماعية



## تعزيز الإبداع

بادئ ذي بدء، يجب إرساء بعض النقاط التمهيديّة، التي يمكن تقديرها على أساس اقتراح مفاده: إن تطوير التربية الإبداعية والثقافية، قد أثار بعض القضايا المنظومية، لأن عملية التطوير في ذاتها تضم كل جوانب التعليم، مثل: أساليب التدريس والتقييم وقيم وأخلاقيات المدارس والاستعدادات التعليمية. وهذا الأمر، يمثل - بالفعل - حقيقة قائمة وأساسية، وذلك بجانب أن جوهر التعليم يكمن في العلاقة بين المعلمين والمتعلمين، وأيضاً في العلاقة النامية بين المتعلمين أنفسهم، ناهيك عن أن كل من التعليم الإبداعي والتعليم الثقافي يتيح علاقات مكافئة بين جميع الأطراف آنفة الذكر.

وعلى صعيد آخر فإن التعليم سواء كان إبداعياً أم ثقافياً، لا يُعبر عن موضوعات قائمة في المنهج ليدرسها التلاميذ، ولكنه يعكس وظائف عامة في التعليم، يمكن تعزيزها في كل أجزاء المنهج، وليس فقط ما يطلق عليه ما يسمى بـ "الموضوعات الإبداعية أو الموضوعات الثقافية"، حيث تسهم الأجزاء المختلفة في المنهج في تحقيق وتفعيل التعليم، سواء أكان إبداعياً أم ثقافياً، بطرق مختلفة. فالفرص التي يتم التركيز عليها في هذا النمط من التعليم الإبداعي أو التعليم الثقافي لا تتطابق مع نظيراتها في العلوم الإنسانية، ولا حتى مع نظيراتها في مناهج التربية البيئية. وبالتأكيد كل هذه المجالات (موضوعات التعليم الإبداعي والتعليم الثقافي) تسهم بطرق مختلفة في خلق تعليم متوازن، يعمل على تحقيق ديناميات الذكاء والثقافة، على

أساس وجود تداخل كبير وتشابك محتمل بين أجزاء المنهج المختلفة، ولا يوجد - في الوقت نفسه أى تشابه محتمل بين عمليات التدريس لكل من التعليم الإبداعي والتعليم الثقافى. وهناك نقطة يجب تأكيدها، وهى وجود نقاش متعدد الأطراف حول طرق التدريس فى المدارس، وحول مدى فاعلية أساليب التدريس التقدمية، التى تزعم بأنها تشجع أنشطة التعليم الاستكشافية، وتؤكد - أيضا - قوة العمل الجماعى والتعلم بالتجربة، حيث ترتبط أنشطة التعلم التقدّمى بإثارة الإبداع والحرية والتعبير عن الذات. ويرى بعض النقاد الذين يوجهون نقداً حاداً للتعليم التقدّمى أن هناك صلة قوية بين مردودات أو مخرجات أساليب التعلم المعاصر ونقص سلطة المدارس وانخفاض المعايير التى يجب الالتزام بها فى ممارسة الأداءات المدرسية، لذلك يفضلون طرق التدريس التقليدية التى ترتبط بالتعليم الرسمى لمهارات ومحتوى معين. وبالنظر، لجوانب هذه القضية، فإن المناقشة فى فحواها تبدو للبعض مجرد اختيار بين الإبداع والتزمّت، وأيضا بين الحرية والسلطة.

وبالتأكيد، من المهم وجود توازن حقيقى فى التدريس الجيد بين التعليم الرسمى للمهارات والمحتوى وإعطاء التلاميذ حرية البحث، مع إمكانية: طرح التلاميذ لبعض الأسئلة، وإجراء التجارب، والتعبير عن آرائهم وأفكارهم، ناهيك عن أن التحصيل الإبداعى الحقيقى يشق أصوله التربوية من المهارات، والمعرفة، والفهم، وتلك الأشياء تظهر واضحة - فى أحيان كثيرة - من خلال التعليم الرسمى (التعليم التقليدى). ولكن التعليم الرسمى وحده لن يشجع الإبداع، وقد يخنقه فى حالات كثيرة، وفى مجالات متعددة. إن طبيعة التعليم الإبداعى، وأيضا طبيعة التعليم الثقافى فى المدارس تجعلنا ن فكر مليا وجديا فى أهمية تجاوز الخلافات بين التدريس التقليدى والتدريس التقدّمى، كما تبرز الحاجة الماسة إلى دمج عناصر من كليهما فى عملية التعليم والتعلم. إن التعليم الإبداعى لا يشبه التعليم الثقافى، ورغم ذلك، فإنها يرتبطان إرتباطاً وثيقاً. وفى الحديث التالى، نقرب أكثر من

مبادئ وعمليات التعليم الإبداعي ونظيراتها في التعليم الثقافي. وفي هذا الشأن، يقدم رين فيدال نموذجًا من عشرة عناصر لتعزير الإبداع، ويقول عنه:

"هذا النموذج لا يبحث عن معنى الإبداع، ولكنه يبحث عن خبرات خلق الإبداع"، وذلك ما يظهره الحديث التالي:

دائمًا ما يكون صغار المتعلمين مبدعين، ولكن عمليات التطبيع التي يخضعون لها في المدرسة وفي المنزل لا تنمي هذا الإبداع الكامن بداخلهم، بل على العكس من ذلك تقتل الإبداع لديهم بطرق عديدة، لذلك يقدم هذا النموذج مجموعة من خبرات دعم الإبداع. ويتبنى هذا النموذج الفكرة النهائية للإبداع: أي إمكانية استخدام بعض الأنشطة، والطرائق، وتعزير الدافعية، وبعض الإجراءات لتنمية الإبداع في كل المراحل العمرية حتى تلك المراحل المتقدمة. ويقدم الحديث التالي مجموعة من الخبرات والعناصر التي يمكن استخدامها في المنزل، وفي المدرسة للكشف عن الإبداع وتنميته، وذلك من خلال وجهات النظر العملية، ومن خلال الأدوات والمفاهيم التي يعتمد عليها الأدباء والعلماء في أعمالهم الإبداعية.

لقد صممت النظم التعليمية على مبدأ أساسي، هو: تعليم الأفراد البحث عن الإجابة الصحيحة، ولكن هذا المبدأ يتنافى مع أساليب حل المشكلات، ذلك لأنه ربما يكون الحل الثاني، أو الثالث، أو العاشر هو الحل الأمثل للمشكلة، وربما لا يكون أي واحد منهم هو الحل الأمثل، حيث يتطلب الأمر دمجهم جميعًا في شكل حل إبداعي للمشكلة. فليست هناك خطورة بالغة الأثر مثل تلك الناتجة عن وجود فكرة وحيدة كائنة في تفكير الفرد. فكلما كان التفكير إبداعياً، فإنه يحتاج إلى تعدد وجهات النظر، وهذا التعدد هو ما يطلق عليه التفكير التباعدي. فتعدد الأفكار هو الطريق الأمثل للأفكار الإبداعية، لذلك يسعى المصور المحترف إلى التقاط العديد

من الصور عندما يكون بصدد تغطية حدث مهم. ربما يلتقط عشرين أو ستين صورة بأبعاد مختلفة، لأنه يعرف جيداً أنه يوجد بين هذه الصور الكثيرة عدد قليل جداً يحقق ما يريده. وتسمى عملية التدقيق هذه واختيار القليل المناسب للموضوع بالتفكير التقاربي. وقد لاحظ رين فيدال من خلال خبرته بالتدريس كمدرس ومحاضر للإبداع وحل المشكلات أن ندرة التفكير التباعدى هو عنق الزجاجة الخائق لعملية الإبداع. ويمكن حل هذه المشكلة إذا تم إطلاق العنان للقدرات التباعدية، وفيما يلي بعض التوجيهات الخاصة بتعزيز قدرة التباعد، وهذه التوجيهات تم استخدامها ولازالت تستخدم من قبل الأدباء والعلماء ومتخصصي حل المشكلات، ممن يؤمنون بمقولة بيونكار H. Poincare.

تنطلق الأفكار مثل السحب وأشعر باصطدامها حينما تشكل في ثنائيات يتم التفوه بها.

#### ١ - التفكير اللين (الهادئ) Soft Thinking

غالبية الأفراد من ذوى التفكير الصلب (الجاد) Hard Thinkers، الذى يتضمن المصطلحات التالية: المنطق، السبب، الإحكام، التماسك، الضبط، الكفاءة، النتيجة، الحقيقة، التوجه، التركيز، التحليل، التجريد... إلخ. ويلجأ إلى هذا النوع من التفكير كلا من المهندسين، والاقتصاديين والعلماء. ولكن هذا النوع من التفكير نجده غير منتشر بين فروع الاجتماع والإدارة وعلم النفس.

أما التفكير الهادئ، فإنه يحتوى على المصطلحات: الاستعارة، الحلم، الدعابة، الغموض، اللعب، التقارب، المرح، العملية، التعميم، التشابه... إلخ. وهذا النوع من التفكير مناسب جداً للتفكير التباعدى.

يحاول التفكير الهادئ إيجاد التشابه والروابط بين الأشياء والعمليات، فى حين يركز التفكير الصلب على الاختلافات، فالتفكير الهادئ يتمثل فى وصول النصف

الأيمن من المخ إلى حل المشكلات، في حين يكمن التفكير الصلب في النصف الأيسر من المخ.

تساعد الاستعارات والتشبيهات على إيجاد بعد مختلف للمشكلة. فعلى سبيل المثال: في بدايات القرن العشرين طور نيلز بوهر Niels Bohr نموذجًا جديدًا للذرة، وذلك عن طريق مقارنته بالنظام الشمسي، ففي هذا النموذج صور الشمس بالنواة، والكواكب بالالكترونات، فالاستعارة والتشبيه هما طريقة وأسلوب للتفكير والرؤية عندما يستخدم الفرد، أو يستدعى مدخلا معينًا يتسم بالتركيز.

تعتمد نظريات المنظمات والإدارة بشكل أساسي على التشبيهات الكامنة أو الاستعارات، التي تساعد بشكل أساسي في فهم وإدارة تلك المنظمات، حيث تستخدم الاستعارات لكي تعطى رؤى جديدة لتلك المنظمات من خلال النظر إليها كآليات، أو أعضاء، أو عقول، أو ثقافات، أو أنظمة سياسية.

يمكن للفرد استخدام الاستعارة دائمًا أو التشبيه في أى مشكلة تواجهه. وحتى يقوم بذلك، عليه القيام بتشبيه المصطلح الذي يتعامل معه بأى شيء آخر، ثم يحدد أوجه التشابه بين الفكرتين، أى استخدام فكرة لتوضيح فكرة أخرى، ولهذا تصبح الاستعارات والتشبيه عناصر أساسية في الشعر بجانب عناصر أخرى مثل القافية، والصورة الشعرية، فالشعر مشتق من كلمة يونانية تعنى الصنع Making أو الخلق Creating.

الحديث السابق يتفق مع مقولة بيكاسو Picasso:

كل حدث للخلق يحتل المنزلة الأولى، ولكن التحليل يسبق كل الأحداث.

### ٢ - التحليل / التركيب Desconstruct / Reconstruct

ليس التفكير الإبداعي تركيبًا فقط، ولكنه أيضًا تحليلًا، فدائمًا ما تكون هناك عمليات تحليل للنماذج والطرائق والقواعد، يليها عمليات تكوين للأفكار والنظم

وذلك لتوليد شيء جديد. وتتطلب عمليات التحليل والتركيب المرونة الشديدة حتى يكون هناك نوعاً من التباعد والتنوع.

في كثير من الأحيان يقع الفرد في عادات الروتين الفكرى، فيصبح العقل كسولاً، بسبب عدم وجود إطار إبداعى محدد المعالم، خاصة عندما يقع في إغراء التكرار، فيجد الفرد نفسه يتبع نموذجاً فكرياً مكرراً دون اعتبار أى عوامل محيطة بموضوع التفكير. وعندما يعى الفرد ذلك، لابد أن يخرج نفسه من هذه الدائرة بإتباع طريقة أخرى للعمل الفكرى، أو عن طريق تبنى أسلوب شخص ما، أو من خلال تفجير الثورة الفكرية التى تعمل على تغيير كل قواعد التفكير التى تسيطر على عقله.

حدث التطور في الفن، والطب، والزراعة، والتسوق، والسياسة، والتعليم، والتصميم، فقط عندما تحدى الفرد القواعد الفكرية وحاول إعمال مدخلاً جديداً، فكسر بيتهوفن Beethoven قواعد إعداد السنفونية، وخرج اينشتين عن قواعد نيوتن الفيزيائية، ومن هنا كان الإبداع الذى تحدى القواعد.

التحليل هو عملية إزالة الغموض عن نص، أو رواية، أو تنظيم، أو نظام، وذلك من أجل الكشف عن العلاقات المنطقية والافتراضات التى يقوم عليها. فمثلاً: تحليل النص أو الرواية يعنى فحص الأشياء التى لم يذكرها النص والأشياء التى ذكرها، وأيضاً الأشياء التى استبعدتها. فالتحليل لا يعنى النظرة الجزئية للأشياء، ولكن يعنى أن الأشياء ليست بسيطة كما نعتقد في بعض الأحيان. عملية التحليل هى عملية عكسية للتركيب، إذ تهدف عملية التحليل إظهار المتناقضات داخل العمل، وكذلك إظهار الأشياء التى تم قمعها في النص. ويؤدى تحليل هذه الأشياء التى يتم قمعها، وتكسير الروابط في نظام معين إلى وضع قواعد جديدة لتركيب نص أو نظام جديد.

وتشتمل استراتيجيات التحليل على: التركيز على العوامل المهمشة، ومواجهة

وتحليل العناصر التي تعد زائفة، وفحص العوامل والأسباب التي تؤدي إلى الإظهار والإخفاء، وفحص ما تم إخفاؤه أو حذفه، والتركيز على المتناقضات، واستخدام الاستعارات.

يحتاج الفرد في كثير من الأحيان إلى الأفكار الغريبة أو الجنونية أثناء إعمال تفكيره. فعند وصوله إلى مثل هذه الأفكار، تجعله في حالة مزاجية سعيدة، وتدفع به إلى اتساع الأفق، وهذا له دوره على زيادة الإبداعية. فروح الدعابة في التفكير تؤدي إلى: (١) اتساع الأفق، وتوضيح نماذج وأبعاد مختلفة في التفكير، (٢) إظهار ترابطات بين عناصر مختلفة لم ترتبط من قبل، (٣) تسمح للفرد بالتفكير الهادئ وليس الحاد (الجاد)، فروح المرح قد لا تحل المشكلة، ولكنها تجعل الفرد في حالة إنتاجية عالية.

الأعمال الفنية، وفنون الكمبيوتر، كلها أشياء بنيت من خلال عملية التحليل/ التركيب. فهذه العملية ببساطة هي عملية توليد للجديد من الفن من خلال الفن نفسه. فمثلاً، يؤدي برنامج في كتابة إلى تنمية الكتابة لدى العينة المقدم لها هذا البرنامج. أيضاً يجلس الفنانون الساعات العديدة في إخراج أعمالهم الفنية، ثم بعد أن تعرض هذه الأعمال تكون سبيلاً إلى أعمال أخرى جديدة عن طريق عملية التحليل/ التركيب.

### ٣ - التخيل Imaging

يجب على الفرد أن يُمارس ويُنمي خياله، فالخيال هو القدرة على تصور المشكلة من اتجاهات مختلفة. يستخدم الفنان دائماً تلك الحالة التخيلية، ويعتمد عليها أثناء توليد الأفكار. من هذا المنطلق يقول بيكاسو "إن كل طفل لهو فنان ولكن المشكلة كيف يبقى فناناً عندما يكبر؟".

تعتبر أهم أساليب وتكنيكات الخيال هو تكنيك "ماذا لو What if". وهذا

الأسلوب مكون من مرحلتين؛ الأولى: أن تسأل الفرد "ماذا لو" ثم تنهى هذا السؤال ببعض الأشياء التي تؤدي إلى تناقض الحقيقة، أو الفكرة، أو الموقف الذي يكون الفرد بصدده؛ ثانياً: يجيب الفرد عن أسئلة "ماذا لو" التي طرحها، فربما تؤدي إجابة هذه الأسئلة إلى توليد أفكار جديدة، ولكن يجب طرح عدد كبير من أسئلة "ماذا لو" فقد كان العالم أينشتين يفعل ذلك.

فعلى سبيل المثال، ماذا لو أصبح الترقى الوظيفى فى المؤسسة التى يعمل بها الفرد غير هرمى؟ ماذا لو أصبح الفرد مديرًا لمديره الحالى؟ ماذا لو تم اختيار المدير عشوائياً؟.. إلخ. وليست هذه الأسئلة لمجرد المتعة فقط، ولكنها تفتح أمام الفرد خطوطاً وأبعاداً جديدة للتفكير، فهذه الأسئلة تؤدي إلى التحرر الفكرى. ولكن يجب أن يعرف الفرد أن هذه الأسئلة لا تؤدي إلى الإبداع بمفردها، ذلك لأن إجاباتها غالباً ما تكون غير عملية أو حتى مستحيلة، ولكن تكمن فائدتها فى أنها تدفع التفكير إلى إيجاد البدائل، فهى تدفع إلى التعدد والتنوع، فكلما مارس الفرد هذه الأسئلة، أصبح منتجاً فى أفكاره.

الخيال هو أساس العمل الفنى، فقد كان بيكاسو يستخدم الأشياء القديمة لتوليد أعمالاً فنية بديعة. كذلك يمكن لأى فرد أن يُدرب خياله على استخدام الأشياء المهملة، من أجل توليد أشياء جديدة وبديعة. ويوجز أينشتين أهمية الخيال والمرح فى الجمل التالية

- الخيال أكثر أهمية من المعرفة.

- عندما قمت بفحص ذاتى، وطرقى فى التفكير، توصلت إلى أن المرح Fantasy له معنى دوراً كبيراً يعلو موهبتى فى اكتشاف المعرفة.

خلاصة القول؛ بدون هذا اللعب والمرح لن تولد أى فكرة إبداعية، وهذا أيضاً

ما يؤكد س. ج. يونج C. G. Jun

الوسيط الطبيعي للتعبير الإبداعي هو اللعب، لأنه يعنى الاندماج فى عملية إعادة التوليد والخلق، ويعنى كذلك التحرك أو العمل بحرية داخل الأطر المحددة مسبقا. وقد يعنى اللعب أن يعزف الفرد الموسيقى، أو يُمثل فى عمل درامى، أو يشترك فى مباراة.. إلخ، فكل هذه الأنشطة تنمى الإبداع. فاللعب يستدعى لغة الخيال، والمشاعر، والأحاسيس، والنفس الداخلية، والمشاركة الفعالة، والحرية حتى يبتكر الفرد أو يُقلد. يعمل اللعب على التنفيس عن الطاقات السلبية ويشجع على الإبداع، وكذلك يشجع على النمو الموجه والتعبير الذاتى والتواصل والعفوية والإبداعية.

اللعب عملية إبداعية، وطريقة آمنة للإفراد، لتجريب واستكشاف طرق جديدة للتعلم. ويعد اللعب الإبداعي فرصة حقيقة: لتنمية الخيال، للتفكير المستقل، وللتصور، وللتواصل، وللتعبير الصحى عن المشاعر، وحرية الخبرة فى الاختيار، وإعادة التوليد والتركيب. فكل المؤشرات تؤكد أن اللعب يزيد أو يثبت مهارات وقدرات حل المشكلات، ومهارات التفكير الإبداعي، والمهارات الاجتماعية، لذلك لا بد أن يجد كل فرد أسلوبًا صحيا للعب. قد يلجأ بعض الأفراد إلى اللعب بسبب بعض الضغوط، أو بسبب العوامل التى تدفع الطفل القابع بداخلهم للظهور، فيحاولون إخفاؤه فى اللعب.

كانت دائما تمثل العروض الفنية والمسرحية فرصًا للفنان ليوناردو دافنشى لينمى أعماله، فكانت هذه العروض تدفعه لرسم أشياء غير مألوفة داخل الحجرات المغلقة ولعدد كبير من الساعات. توصل العديد من الفنانين والمحترفين إلى أن هناك جانبين لعملية الإبداع؛ الجانب الخاص باللعب والذى يسمح لهم أن يجربوا أعمالهم بمداخل مختلفة حتى يولدوا أفكارًا جديدة (التباعد)، أما الجانب الثانى وهو الخاص بالعمل والذى يمكنهم من وضع الشيء فى شكله الصحیح (التقارب).

يمكن للفرد أن يُحوّل مشكلته إلى مباراة، وعليه - في هذه الحالة - أن يختار مجموعة أفراد وينشأ مباراة معهم تحاكي مشكلته. فعلى سبيل المثال: التنافس مع شركة أخرى أو داخل مؤسسة ما، يمكن للفرد لعب بعض الأدوار القيادية، وكذلك تغيير الأدوار التي يقوم بها الآخرون، مثل: جعل المدير سكرتيراً، وجعل السكرتير مسئولاً عن المبيعات، وهكذا... إلخ، ثم ينفذ الفرد العمل في ضوء هذا التغيير.

يمكن للفرد أن يُنمى قدرات اللعب لديه مع قادة اللعب، وهم الأطفال. فاللعب الحر شيء مهم في حياة الأطفال، لأنه يساهم في تفعيل نموهم الطبيعي. ومن أهم فوائد اللعب تنمية التواصل الاجتماعي مع الآخرين. اللعب يعتبر بمثابة نشاط للتعبير عن الذات، وهو يعتمد على القدرات الخيالية للطفل. يكون اللعب دائماً مفتوح النهاية، ويكون للأطفال مطلق الحرية لتجريب الجديد من الأفكار فاللعب يتيح الفرص الموازية ليعرف الفرد، أو ليسمع لهؤلاء الذين يعرفون، كما يقول ب. جراوان B. Grawan.

#### ٥ - الاستكشاف Explore

يحتاج المفكر المبدع إلى مصفوفة الأشياء والأدوات التي يصنع منها الأفكار الجديدة: المعرفة، والخبرات، والمفاهيم، والحقائق، والمشاعر... إلخ. وهذه تمثل منظومة الأدوات التي ربما تأتي من فروع مختلفة للمعرفة. فلكي يصبح الفرد مبدعاً، يجب أن يبحث عن الأفكار خارج خصوصيته؛ وأن يبحث دون وجود نظام يتقيد به، وأن يتبته للنماذج غير المألوفة، وأن يستخدم حواساً مختلفة، وأن يبحث عن الأفكار المختلفة.

من أهم أنشطة التفكير التباعدي أن يتعرف الفرد على الفكرة الأساسية لموقف ما، وأن يُطبّقها في موقف آخر. فمثلاً: معرفة الكهرباء جاءت من المعرفة العلمية

بالمياه أولاً. دائماً ما يأتي التقدم العلمى عندما يقوم فرد أو مجموعة أفراد بتغيير وتبديل حقول المعرفة.

المشكلة ليست بالضرورة تنتمى إلى حقل محدد، فالمشكلة دائماً ما يكون لها خصائص فنية، واقتصادية، وإنسانية، واجتماعية، وسياسية. وما يحدث فى العادة هو أن يقصر الاقتصاديون المشكلة على النواحي الاقتصادية، ويقصرها المهندسون على النواحي الفنية، وهكذا..... فهذه لغة التخصص الدقيق. فلكى يستكشف الفرد، فهذا ليس معناه فقط أن يأخذ أفكاراً من فروع معرفية فى مجال تخصصه، ولكن عليه أيضاً أن يعتبر ويفحص المشكلة من منظورات مختلفة، وأن يكسر أو يتخطى الحدود والحواجز والفواصل بين شتى الجوانب المعرفية، وبذلك يستطيع أن ينمى الإخصاب المشترك، وأن ينتج مداخل إبتكارية.

لكى يصبح الفرد مستكشفاً، فهذا معناه أن يبحث عن المعلومات من حوله، فدائماً ما يجد المعلومات فى محلات الملابس، وفى المتاحف، وفى المطارات، وفى المطاعم، وفى الحدائق العامة وغيرها. فالطبيعة هى مكان مهم لاستكشاف الحقائق، حيث كانت الأنظمة الطبيعية دائماً هى مفتاح الحل للعديد من المشكلات بطرق إبداعية.

إحدى الطرق المفضلة فى الاستكشاف هى ذهاب الفرد إلى المكتبات والنظر إلى أرفف الكتب التى لم يراها من قبل، ثم يختار بعض الكتب عشوائياً لدراستها. وفى الغالب الأعم، قد يجد الفرد كتاباً عن موضوع لا يعرفه، فيستعير هذا الكتاب لدراسته. لذلك يكتب ليوناردو دافنشى: لا يجب ألا يكون صعباً عليك التوقف أحياناً والنظر إلى الجدران، أو رماد النيران، أو السحب، أو الطين، فمثل هذه الأشياء ربما تجد فيها أفكاراً رائعة.

ما تقدم، يواكب رؤية ماركس K.Marx بأن الفلاسفة قد فسروا العالم بشتى الطرق ولكن الفلسفة تكمن في تغيير هذا العالم .

## ٦ - التفكير الجدلي (الجدلي) Dialectical Thinking

يتسم التفكير الجدلي أو الديالكتيكي بسمتين أساسيتين؛ الأولى وهي تركيزه على التغير؛ فهو يركز على العملية والحركة. والثانية هي تركيزه على أن أساس التعبير هو قد يؤدي إلى التناقض، لذلك يبحث دائما الديالكتيكيين (الجدليين) عن الغموض والمتناقضات والصراعات سواء داخل الأفراد أو المواقف، باعتبار أن هذه المتناقضات هي المرشد الحقيقي لما يحدث أو ما سوف يحدث.

أما أسس وافتراضات المتناقضات والمتضادات، فأهمها ما يلي:

\* الاعتماد المتبادل بين المتناقضات، فمثلا الضوء يفترض وجود الظلام.

\* التداخل بين المتناقضات، فمثلا هناك بعض الضوء في كل ظلام، وهناك بعض الظلام في كل إضاءة.

\* دمج ووحدة المتناقضات، فإذا بلغ النقيض ذروته، وأصبح سائدا بمفرده، يتحول إلى ضده. فمثلا: إذا جعلنا أى من الضوء أو الظلام مطلقا بمفرده فلن نستطيع رؤية أى شيء.

عندما يفكر الأفراد تفكيرًا جدليًا في ورش التفكير الإبداعي، فإنهم يضعون وجهتي نظر أو أكثر مع بعضهم البعض، ثم ينمون كل وجهة نظر بتقديم دعائمها، وكذلك الأشياء التي تتعارض وتتضاد معها. فمن فوائد التفكير الجدلي في حل المشكلات الإبداعية، نذكر الآتي:

- يدفع المشاركين في تحديد البدائل المتناقضة،

- يؤدي إلى تكوين منظور قوى قائم على النقد البناء.

وفيما يلي بعض المقولات لبعض المفكرين الجدليين:

\* بيكاسو: الفن أكذوبة تجعلنا نلاحظ الحقيقة.

\* بوهر: هناك نوعين من الحقيقة هما: الحقيقة الصغرى، والحقيقة الكبرى، فيمكنك التعرف على الحقيقة الصغرى لأن نقيضها زائف، ولكن نقيض الحقيقة الكبرى، حقيقة كبرى أخرى.

\* أينشتين: هل أنا مجنون؟ أم أن الآخرين هم المجانين؟

الاقتراسات السابقة كلها تمثل متناقضات، ولكنها قد تكون صحيحة، فكلًا من الفنان والعالم يعلم أن المتناقضات بمثابة عناصر أساسية للعملية الإبداعية، لأنها تخرج الفرد من الطرق الضيقة للتفكير وتدفعه لاختبار مسلماته.

يعد البحث عن الأشياء الغامضة أسلوبًا جيدًا للتدريب على التفكير الجذلي عند بحث الفرد عن أفكار جديدة. فعلى سبيل المثال: ما هو نصف العدد ٨؟ يجب المفكرون المنطقيون بأنه العدد ٤.

ولكن إذا افترض الفرد أن السؤال غامضًا، فسوف يبحث عن إجابات أخرى، مثل: صفر، ٣، ١، ٢، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠. وكل هذه الإجابات تعتمد على تعريف الفرد لكلمة "نصف".

يجب أن يستمع الفرد جيدًا إلى أحلامه، فالأحلام هي مصادر جيدة للأشياء الغامضة والمتناقضات، خاصة إذا كان الفرد يتعامل مع مشكلة ما، فسوف تقدم له أحلامه تحليلًا إضافيًا للموقف الذي يأخذ شكل الحلم. فمعروف جيدًا لدى الفنانين والعلماء أن الأفكار الإبداعية كانت في البداية في صورة أحلام.

يظهر التفكير الجذلي في الفن بصورة جلية، فمثلاً: ترتبط الصورة جذليًا بالإطار المحيط بها، ويشكل كلاً من الإطار والصورة وحدة متكاملة، كذلك في البيئة يكون العنصر والبيئة وحدة متكاملة. حتى في نظرية الألوان هناك تفكيرًا جذليًا، فمثلاً: اللون الأحمر مرتبط جذليًا وديالكتيكًا باللون الأخضر، فالحمرة تعزز بالخضرة والعكس. وفيما يلي بعض قواعد التفكير الديالكتيكي والتي أرسنها بعض العلوم الفنية.

\* لا تتعامل مع شيء بأنه مطلق ومضمون.

\* العفوية.

\* النقل وإعادة التطبيق.

\* تحليل النماذج.

وفي الشأن السابق، يقول أينشتين Einstein أفكر وأفكر لشهور وسنين، في تسعة وتسعين مرة تكون النتيجة خاطئة، وفي المائة أكون على صواب.

## ٧ - التعلم من الخطأ Learn from Failure

الأخطاء هي رسائل متنوعة يكتسبها ويعرفها الفرد من خلال أعماله. ويمثل عدم الخوف من الخطأ ركنا مهما في التفكير الإبداعي، فإذا لم يُخطئ الفرد الآن أو مستقبلا، فهذا يعني أنه لا يُجرب أشياء أبداعية. الخطأ ببساطة يعني أن الفرد يعرف العطب، وهذه المعرفة تمثل له فرصة حقيقية، لأن يُجرب مدخلا جديدا أو ممارسة جديدة. فالخطأ لا يعني أبداً أن الفرد على المستوى عال من الكفاءة؛ لأنه لا يعمل بشكل صحيح من المرة الأولى، فعند الخطأ تتولد الأفكار التي تدعو لتجريب أبعاد مختلفة.

هناك قصة لأحد مديري البنوك الذي استلم عمله كمدير بنك حديثا: ذهب هذا المدير الحديث العهد إلى المدير السابق للبنك، وسأله: أريد أن أعرف ما هي مفاتيح نجاحك، فنظر إليه المدير السابق، وأجاب ملخصاً عوامل نجاحه في كلمتين، هما "القرارات السليمة"، فسأل المدير الحديث: ولكن كيف يعرف الفرد أن قراراته سليمة، فأجاب المدير السابق قائلاً: من "الخبرة"، فتمادى المدير الحديث سائلاً، ولكن كيف يكتسب الفرد الخبرة؟ فأجابه المدير السابق قائلاً في كلمتين: من "القرارات الخاطئة".

من المهم جعل الخطأ هو الأساس لفكرة جديدة، إذ إن واقع تاريخ الاكتشافات

العديدة يبرز ويظهر أن الأفراد الذين جربوا العديد من الافتراضات الخاطئة والأفكار الخافقة، كانت بمثابة حجر الأساس لإبداعات جديدة قد حققوها. لقد اعتقد كولومبس أنه وجد طريقا قصيرا إلى الهند فوقع في خطأ عظيم، وكانت أعمال ايديسون في عام ١٨٠٠ غير موجهة إلى عمل مصباح كهربائي، ومن خلال الخطأ الذي وقع فيه، اكتشف المصباح الكهربائي. أيضا، أحد أخطاء السيدة كيرز قادت إلى اكتشاف الإشعاع. باختصار؛ نقول أن المبدع دائما يخطئ، ورغم ذلك، فإنه يجرب ويجرب ربما آلاف المرات حتى يتوصل إلى الحل، ولكنه يعرف جيدا كيف يخطأ إبداعيا.

تحالف الفرصة دائما العقل المعد لذلك؛ العقل السرنديي<sup>(١)</sup>. لذلك يجب على الفرد أن يُنمى "عضلات المغامرة" ويجعلها جاهزة بأن تجرب دائما الأشياء الجديدة. فالمبادرة بالمغامرة تعنى التجريب في الحياة واكتساب الخبرات والتعلم عن الذات وعن الآخرين، إذ إن تنمية المغامرة تمد الفرد بالشجاعة والثقة بالذات، كما يتطلب الإبداع الشجاعة.

يعكس تاريخ الإبداع العلمى الفنى أن قصص الإبداع والنجاح كانت قصصا للأخطاء وال فشل، فكان ألبرت اينشتين بليدا في المدرسة حتى أسموه "ألبرت البليد"، ووصفه معلموه بأنه كان بطئ التعلم، وغير اجتماعى، وكان شخصا يهيم في أحلامه البلهاء. أما دارون فكتب قائلا: كان ينظر إلى والدى والمعلمين في المدرسة على أننى طفل ذكاؤه أقل من المتوسط. أما كينز Keynes فكان يرسب كل عام في امتحانات الاقتصاد. ولم يتمكن الفنان فان جوخ من أن يبيع رسوماته. فكل هؤلاء الأفراد كانوا مثل غيرهم من الأفراد، ولكن الفرق الوحيد بينهم وبين غيرهم هو أنهم في كل مرة يفشلون فيها لا يتقهقرون ولا ينسحبون، لأن لديهم نوعا من الفشل يسمى الفشل الاقدامى وليس الفشل الاحجامى.

(١) السرنديية: موهبة اكتشاف الأشياء مصادفة (من أسطورة أمراء سرنديب الثلاثة).

ولتدراك الخطأ، أو للتعلم منه، من المجدى إقرار مقولة هـ. ج. بل H. G Bell وهى: تستوجب الاختراعات والاكتشافات العظيمة. التعاون بين العديد من العقول.

## ٨ - التعاون Collaboration/ Cooperation

يقوم التعاون الفعال على أساس توظيف قوى وملكات الأفراد الذهنية فى عمليات حل المشكلات، فهنا نجد التفاعل الهادف بين الأفراد لحل مشكلة ما، أو اكتشاف شيء جديد، أو تغيير شيء ما. لقد أصبح التعاون ضرورة من ضرورات المجتمع الحديث. نحن بحاجة فى هذا المجتمع إلى الخبرة، والبصيرة، والتعليقات، والأسئلة، والأفكار من الآخرين؛ لأن التعاون هو أسلوب بنائى مهم لتوليد التفكير التباعدى، كذلك يساعد هذا التعاون فى تقييم الأفراد لنقاط قوتهم ومواهبهم، وفى زيادة تقدير الذات.

وتجسد استعارة الأوز أثناء الطيران جوهر التعاون، فلماذا يطير الأوز فى جماعات على شكل حرف V؟ ذلك لأن الطيران فى جماعات بهذا الشكل يزيد من قدرة الطيران بنسبة ٧١٪ عن الطيران الفردى. وعندما تتخلف إحدى هذه الطيور عن قطع الطيران تشعر بالمقاومة الداخلية، وغالبًا ترفض الطيران الفردى، ولذلك تعود بسرعة إلى القطيع. كذلك عندما تشعر قائدة القطيع بالتعب تتهقر إلى القطيع، وتتقدم واحدة أخرى، أما عندما تمرض إحداهم أو تصاب فتسقط فتتبعها اثنتان من القطيع لمساعدتها ولحمايتها، فيبقوا معها حتى تستطيع الطيران أو حتى تموت، وبعد ذلك يطرون بمفردهم أو مع قطع آخر.

والتعاون أيضا هو أساس بعض الألعاب الرياضية، مثل كرة القدم على سبيل المثال، فكفاءة فريق كرة القدم لا تقاس بكفاءة كل لاعب على حدة، ولكن بكفاءة الفريق فى التعاون. تصبح كرة القدم فناً عندما يتعاون جميع أفراد الفريق ويلعبون فى تناغم. كذلك بالنسبة للموسيقى نجد فيها التعاون والتناغم الشديد بين العازفين.

يمكن تنمية مهارات التعاون من خلال التعلم التعاوني، وأيضاً من خلال أسلوب حل المشكلات الجماعي. يحتاج التعلم التعاوني إلى التواصل بين أفراد المجموعة أثناء حل مشكلة ما، فيتفاعل كل فرد مع الآخر (أو مع الآخرين) من خلال دوره المسئول عنه، ويوضح كل فرد ما في فكره وما يقترحه لحل الصراعات التي تنشأ. ويمكن للأفراد أن يصلوا إلى مستوى الفهم العام فقط، عندما يصبحوا قادرين على تقديم ومناقشة وجهات نظرهم.

وتتجسد خصائص التعلم التعاوني الناجح في:

\* الاعتماد الايجابي.

\* المحاسبة الشخصية (الفردية).

\* التفاعل.

\* التواصل والمناقشة.

ويتعلم الفرد من خلال أنشطة التعلم التعاوني ما يلي:

\* التعامل مع المتباينات.

\* التعرف على نقاط القوة لدى كل فرد من أفراد مجموعة العمل.

\* إبداء الاحترام وذلك من خلال تقدير إسهامات كل فرد من أفراد المجموعة.

\* ممارسة الأدوار المختلفة من خلال التناوب في توزيع تلك الأدوار.

\* اكتساب خبرة عملية من الزملاء.

\* مشاركة الأقران في خبراتهم وأفكارهم.

ويؤكد ستيفنسون R.L Stevenson ، ما تقدم بقوله: دائماً ما أسافر، ولكن لست

لأذهب إلى مكان ما، ولكن لأذهب، فقط فأنا أسافر من أجل السفر.

٩ - العملية/ المنتج Process/ Product

العملية والمنتج عنصران أساسيان في أى نشاط لحل المشكلات. يركز دائما العلماء في حل المشكلات على المنتج، في حين يركز الفنانون في حل المشكلات على العمليات. فهناك في الواقع جدل شديد حول التركيز على العمليات وعلى المنتج، مع مراعاة أن المنتجات الإبداعية تتطلب التركيز على العمليات.

يمكن إن يكون المنتج بداية لعملية جديدة، فعلى سبيل المثال: قد يكون المنتج الصناعى نفسه عملية كأن يكون مثلا طريقة أو شيء معدل مقدم للعملاء. هناك مجموعة عمليات، لأسلوب حل المشكلات الإبداعى، هذه العمليات تهدف إثراء التفكير التباعدى، تعقبها عمليات تهدف إثراء التفكير التقاربى. يظهر التركيز على العمليات بشدة أثناء حل المشكلات الجماعى، الذى يتسم بالتعقيد عن العمل الفردى.

بالنسبة لأسلوب حل المشكلات الجماعى، هناك فكرة جيدة، وهى تعيين مدير عملية حل المشكلة، أو ما يسمى ميسر عملية حل المشكلة Facilitator، وهذه الفكرة تدور حول وجود عمليتين اجتماعيتين، هما: عملية حل المشكلة وعملية الجماعة أو المجموعة القائمة على حل المشكلة. أما فيما يتعلق بعملية حل المشكلة فهى تعنى الأسلوب أو الطريقة التى تتبعها الجماعة أو المجموعة في حل المشكلة، وتشتمل: مهام توليد الأفكار، والتنقل بين مراحل التفكير التقاربى والتباعدى. أما عملية الجماعة القائمة على حل المشكلة وتختص بالطريقة التى يعمل بها أعضاء الجماعة من حيث: كيف يتعلمون؟ كيف يتواصلون؟ ما هى أدوارهم؟ كيف يتعاملون مع الصراعات؟ ويتضح مما سبق أن العمليتين متداخلتين بدرجات متفاوتة، فإذا كانت هناك ظروف مثالية للعمل، فسوف تتكامل هاتين العمليتين.

دعنا نحلل في هذه الجزئية نظرياً جوهر عملية التبسيط facilitation process في ضوء خصائصها وأهدافها كعملية أساسية في أسلوب حل المشكلات الجماعي. عملية التبسيط عملية أساسية لها أغراض محددة ينفذها شخص أو عدة أشخاص، وتعمل بين عمليتين متفاعلتين، هما: العملية الأولى وهي العملية المنطقية/ العقلية/ الشرعية/ التي تنفذها المجموعة الغرضية purposeful group (مجموعة حل المشكلة)، والتي تسعى لتحقيق بعض الأهداف، فتسمى هذه العملية بعملية حل المشكلة، وتمثل المشهد الموضوعي للمشكلة. العملية الثانية وهي العملية غير المنطقية/ غير العقلانية/ غير الشرعية، والتي تشير إلى العملية الاجتماعية التي تنشأ نتيجة علاقات المشاركين مع بعضهم، أو نتيجة علاقات المشاركين بالميسر facilitator، فهذه العملية تحمل الصبغة الذاتية. تتحرك عملية التبسيط في نطاق رمادي بين مشهد الموضوعية ومشهد الذاتية، أو كمتنج لتصارع العمليات العقلية المنطقية، وتلك غير العقلية وغير المنطقية. واقعياً، هناك صراع بين العمليتين: العقلية وغير العقلية، ورغم ذلك، فإنها في حاجة إلى بعضها البعض، ذلك لأنه في حين تبحث عملية حل المشكلة عن تحقيق حلولاً حقيقية، تمثل العملية غير العقلية القاعدة لإنتاج الأفكار، فالعقلانية تحتاج إلى اللاتكون، واللاتكون تحتاج إلى العقلانية، فبسبب هذا التناقض بين العقلانية واللاتكون يمكن القول بأن عملية التبسيط عملية جدلية.

في النهاية نستطيع القول بأنه: أولاً انضمام الفرد إلى مجموعة في حل المشكلات يعزز من إبداعه، ومن قدرته على المشاركة في عمليات إبداعية تعاونية، وثانياً يعد تعلم فن التبسيط Facilitation مهماً عند حل المشكلات، فهو يحتاج إلى الإبداع لمساندة أعضاء الجماعة أثناء حل المشكلات الجماعي.

وبعامة، عندما تخضع الأفكار العظيمة للممارسة تصبح أعمالاً عظيمة، كما يقول

هازلت H. Hazlitt

١٠ - الإبداع اليومي Everyday Creativity

الإبداع اليومي هو القدرة على رؤية الموقف بطرق مختلفة، والتهادى في التساؤل حتى الوصول إلى القناعة. فكل أفراد الجنس البشرى مبدعين، ويمكن تنمية إبداعهم أو قتله بطرق عديدة. ففي كل مرة يواجه فيها الفرد موقفا لم يتعلم الاستجابة له من قبل، فهو بحاجة إلى درجة من الإبداع.

التفكير الإبداعي يتقدم بكثير عن التفكير في الأفكار الإبداعية، فالتفكير الإبداعي يمكن أن يكون أسلوب حياة، أو سمة شخصية، أو طريقة للنظر إلى العالم المحيط، أو طريقة للتفاعل مع الآخرين، وأن طريقة للعيش والنمو. المعيشة الإبداعية تعنى تنمية مواهب الفرد، والكشف عن استعداداته، وأن يكون قادراً على أن يكون، وكل ذلك يتأتى من خلال الاكتشاف الذاتى، ومن هنا تصبح الحياة فناً.

يمكن للفرد أن يُنمى قدراته الإبداعية بأن يتعامل مع المشكلات اليومية بطرق إبداعية، وهناك أربعة قدرات أساسية في هذا المضمار، هى:

\* الطلاقة fluency.

\* المرونة flexibility.

\* الاصلالة originality.

\* التحليل elaboration .

والطلاقة هى إنتاج العديد من الأفكار، أو البدائل، أو الحلول. والمرونة هى القدرة على بحث المعلومات أو العناصر بطرق مختلفة. والأصلالة تعنى الابتعاد عن الغريب والشاذ. والتحليل يعنى القدرة على تكوين أفكار مفصلة.

هناك العديد من الطرق التى يستطيع الفرد من خلالها تنمية إبداعه داخل منزله منها اللعب مع الأطفال، كذلك الطهى الإبداعي حيث يتمكن من عمل وجبات

بطريقة إبداعية، وسوف يجد هنا التغذية المرتجعة من قبل الأسرة، وفي مثل هذا الموقف يكون التعلم من الخطأ نشاطاً مهماً. كذلك يمكن للفرد تدريب أسرته على مهارات حل المشكلات الجماعية. فعلى سبيل المثال: عند التخطيط لأجازة الصيف أو نهاية عطلة الأسبوع، قد يندهش الوالدان كثيراً، عندما يجدان أطفالهم يستخدمون تكتيكات إبداعية بسيطة.

يحتاج المجتمع دائماً إلى حل المشكلات الجماعية بطرق إبداعية، فمشكلات المخلفات، والطاقة، وتكنولوجيا المعلومات، تحتاج كلها إلى التعاون والحلول الإبداعية. كذلك لابد من إعمال الإبداع في المجتمعات الرياضية، أو حتى في الهوايات.

## الإبداع والتربية الثقافية

لا يعتبر التدريس من أجل الإبداع طريقة أو أسلوب وحيد، فهو يستلزم عددًا كبيرًا من المداخل وطرق التدريس المصاحبة. ومن المحتمل والمرغوب فيه أن نستخدم التدريس من أجل الإبداع في تدريس كل أجزاء المنهج. وفي الحديث التالي يتم الربط بين التربية الثقافية والتربية الإبداعية:

(١) إن العمليات الإبداعية تشتق من السياقات الثقافية التي تحدث فيها.

(٢) إن الثقافة الإنسانية في كل أشكالها هي مخرجات لإبداعات البحث في جميع أشكاله. وعليه فإن الثقافة الإنسانية يمكن أن تمد المدرسين والتلاميذ على السواء بفرص عديدة لتطوير معارفهم الثقافية ولتؤكد فهمهم لجوانب المعرفة المختلفة والمتعددة.

ومما يذكر، تشارك المدارس في التطوير الثقافي من جهتين، هما:

(١) دمج وتعزيز قيم وسلوكيات بعينها، كما تنقل ثقافة المدرسة إلى التلاميذ سواء بصورة صريحة أو ضمنية، وبطرق عديدة، حيث تتمحور هذه الثقافة حول بناء ومحتوى المنهج، والعلاقات بين المدرسين والتلاميذ، وطرق ومعايير التقييم المعمول بها، وكيفية إدارة المدرسة في ضوء علاقتها بالمجتمع.

إن الروح السائدة في المدرسة، والقيم التي تعبر عنها، لها تأثير مباشر على قيم واتجاهات التلاميذ. ولهذا السبب يتم وصف المشاكل التي تواجه التربية الثقافية والإبداعية بأنها مشاكل نظامية.

(٢) الهدف الأساسي من وجود المدارس هو إكساب التربية الثقافية، وتفعيل دورها. فإذا كانت الأهداف الرئيسة للتعليم الرسمي تتمثل في تنمية معارف الصغار، وتقوية فهمهم، وإكسابهم قدرات بعينها يحتاجون إليها لشق طريقهم في الحياة، فذلك يستلزم محاربة الجهل، وتعميق وتوسيع المعرفة والفهم الثقافي، وتشجيع الفضول والتساؤل، وإكساب التلاميذ مقومات التفكير النقدي مع إبراز أهميته داخل المدرسة وخارجها.

بالتأكيد لا تستطيع المدرسة تدريس كل شيء، لذلك يحدد المنهج القومي الموضوعات التي يجب تدريسها. وبهذه الطريقة تحدد السياسة التربوية القومية برنامجاً عاماً ثقافياً للتربية، وقد تضيف المدارس أو تحذف من هذا البرنامج، دون الإخلال بمضمونه أو فحواه الأساسي. وتعتبر عملية الاختيار حتمية ومرغوبة بالنسبة لما يجب تعليمه من بين الموضوعات التي يتم تحديدها على المستوى القومي، ولكن يجب الاختيار بعناية وبحكمة، إذا أردنا أن تحقق المدارس أدوار التربية الثقافية، من حيث تمكين الصغار من إدراك واكتشاف وفهم قيم المجتمع إبداعياً.

وهذا ينعكس إيجاباً بالنسبة للمجتمع، فالطريقة التي نفكر بها، فتتصرف على أساسها تتأثر بدرجة كبيرة بالبيئة الثقافية التي نعيش فيها، كما تتأثر - أيضاً - بالبيئة المادية التي تحيط بنا، وبتاريخنا وخلفياتنا في شتى المناحي. وما يذكر، أحياناً قد ندرك ونفهم ما يحدث حولنا، وأحياناً أخرى، قد لا نعي الأحداث التي تواجهنا، لأننا لا ندرك ولا نفهم القيم والأفكار المحركة لها.

يجب أن يوفر التعليم فرصاً للصغار لاكتشاف وإدراك قيمهم ومسلماهم الخاصة. وتوفر الفنون الإنسانية فرصاً مهمة، يتحقق عن طريقها ذلك الاكتشاف أو الإدراك، حيث تقدم أساليب فعالة في هذا الشأن. على سبيل المثال: الدراما تهتم أساساً بالسلوك الاجتماعي والقيم المكونة للسلوك. ومن خلال الأعمال الدرامية

والنصوص يمكن أن يبحث التلاميذ عدة قضايا اجتماعية واقعية. ويتولد عن هذه العملية بصيرة فعالة بالقيم، والقدرة على التقدير الذاتي.

إن العمل يحسن قدرة الطفل على التعبير عن مشاعره، ويزيد من إحساسه بتقدير الذات، حتى وإن كان يعاني من صعوبات وجدانية وسلوكية، وبهذا يستطيع تحمل مسئولية سلوكه وأفعاله وممارساته.

بمعنى؛ توفر الدراما فرصًا لاكتشاف وإطلاق عدة مشاعر في البيئة الآمنة، وهذا يشجع التلاميذ على تجربة أنواع سلوك مختلفة، مما يزيد من ذخيرتهم المعرفية، ومن خبراتهم الدراسية، ويقدم لهم فائدة، حقيقة تشجع على التفاعل الإيجابي لتقبل وفهم الاختلافات الثقافية من خلال احتكاك التلاميذ مع بعضهم البعض، وذلك يظهر واضحًا جليًا في الحديث التالي، والذي يتمركز حول مجموعة من الإجراءات الإبداعية:

#### (١) تطوير العمليات الإبداعية التي تساعد على فهم الثقافات:

ويرتكز التطوير الإبداعي على دعامين لدور المدرسة، هما:  
\* تأكيد أهمية خبرات التلاميذ وثقافتهم، وتقديرهما على أساس دورهما في تحقيق تميز التلاميذ.

\* توضيح أن الثقافات الإبداعية المختلفة لها وجود حقيقي، ولهذا يتعرض التلاميذ من ذوى الأقليات المختلفة لمشاكل معقدة في تحديد هويتهم في المنزل والمدرسة، ولذلك يجب مساعدة التلاميذ للعمل معًا، من منطلق احترام كل منهم لطريقة حياة الآخرين إلى أقصى حد ممكن.

#### (٢) تفهم جوانب الثقافة الإبداعية:

في المدارس الابتدائية، في البلاد التي تستقبل المهاجرين أو الوافدين إليها من بلاد عديدة، يوجد عدد من التلاميذ الذين ينحدرون من عائلات لها أصولها أو

جذورها الآسيوية أو الأفريقية. وبمتابعة هذه القضية، نجد أن التلاميذ الذين نشأوا في مجتمع متسامح، أو في أحياء فقيرة، يكونوا متسامحين مع التصرفات الخرقاء والحمقاء التي تصدر من بعض نظرائهم في الفصل، كما أنهم يظلون متسامحين بعد ذلك في حياتهم المستقبلية، إذ من الصعب عليهم تغيير أفكارهم التي تربوا عليها. على سبيل المثال: إن الأطفال يستخدمون اللغة التي اكتسبوها منذ تعلم الكلام، ولذلك من الضروري تعديل المنهج القومي ليؤكد قيمة الاختلاف الثقافي بين التلاميذ بعضهم البعض، طالما يؤكد هذا الاختلاف إبداعاتهم داخل المدرسة وخارجها.

وعليه.. يجب أن تبدأ عملية تعلم التلاميذ من المنزل، وتنتهي أيضا في المنزل، على أن يكون الفرق بين البداية والنهاية واضحا وظاهرا وجليا، لضمان قدرتهم على التعامل بإبداع مع متغيرات الدراسة، ومع تداعيات وتجليات ظروف المجتمع من حولهم.

### (٣) أدوار مدير المدرسة من منظور إبداعي:

يعتبر المدير هو أهم شخص في المدرسة، لأنه يستطيع إعطاء أولوية للتربية الثقافية وللتربية الإبداعية. والمدير المبدع هو الذي يكون مبدعا في تفكيره الخاص، وفي أساليب إدارة المدرسة، وفي المتابعة الذكية لطرائق التدريس والتعلم، ويؤمن - أيضا - بأن الإبداع بكل أشكاله يؤثر بشكل فعال في تكوين ونماء الأطفال في شتى المناحي والمجالات.

### (٤) خطة العمل المدرسية وفق أسس إبداعية:

دائما يحدد المديرون خطة وأسلوب عمل مدارسهم، ولكن ذلك لا يكفي، إذ يجب عليهم أن يتزعموا تطوير خطة عمل من أجل تفعيل دور التربية الثقافية والإبداعية على السواء. بمعنى؛ يجب عليهم وضع خطة تضم المدرسين والتلاميذ والمجتمع، بحيث تشمل العناصر التالية:

- فحص الاستعدادات.
  - خلق الفرص.
  - تقدير الاختلاف.
  - مراقبة التقدم.
  - تطوير شبكات الاتصال.
  - اشتراك الوالدين.
- والحقيقة إن المضامين السابقة تشير بوضوح إلى أهمية التكامل بين التربية الإبداعية والتربية الثقافية، مع ضرورة الأخذ بمداخل التدريس المعاصرة.
- أيضا، تصميم خطة العمل المدرسية وفق أسس إبداعية، يستدعى تكوين برامج خاصة لتطوير المنهج الدراسي، من خلال تحقيق التوصيات التالية:
- \* أن يعطى المديرين والمدرسون الأولوية للتربية الثقافية والإبداعية لتعزيز التطور الإبداعي لدى التلاميذ، ولتشجيع وجود روح منافسة مدرسية، تُقدر وتدعم فيها التباينات الثقافية.
  - \* تكوين مشاريع تجريبية لتطوير برامج عملية وأساليب لتحفيز وتعزيز التفكير الإبداعي في المدارس الابتدائية والثانوية.
  - \* تطوير دليل التدريس والتعليم الإبداعي لكل موضوع من موضوعات المنهج.
  - \* فحص الأمثلة والمواد المنهجية المستخدمة في استراتيجيات تعليم القراءة، والكتابة والحساب في التربية الثقافية والإبداعية في المدارس الأساسية.
  - \* توفير المواد التعليمية على الشبكة القومية للتعليم (إنترنت)، من خلال الوسائل الإعلامية.
  - \* تحديد ميزانية خاصة بتحسين خبرة المعلم، ليتمكن من أركان التربية الثقافية والإبداعية على السواء.

## الإبداع وعولمة الديمقراطية التربوية

في لقاء تلفازي لقناة الأخبار المصرية بمناسبة العدوان الإسرائيلي على جنوب لبنان، في بدايات أغسطس ٢٠٠٦، أشار الدكتور بطرس بطرس غالي إلى فشل الأمم المتحدة في تحقيق المهام التي يجب أن تتحمل مسئوليتها، وأوضح ضرورة وأهمية عولمة الديمقراطية لتكون الديمقراطية نهجًا سياسيًا يتم تطبيقه على مستوى جميع الدول: المتقدمة والنامية، والغنية والفقيرة، على حد سواء.

وبالتفكير كثيرا في مفهوم ومصطلح عولمة الديمقراطية من زاوية: أي يمكن أن يكون لهذا المفهوم أو المصطلح دلالاته التربوية؟ بمعنى: هل يمكن تطبيق هذا المفهوم أو المصطلح على مستوى التعليم من خلال منهجية إبداعية؟

وتقتضى الإجابة عن السؤالين السابقين، دراسة الموضوعات التالية:

### أولا: المقصود بالعولمة وتجلياتها في المجالات المختلفة:

في ضوء قيام اقتصاد يعتمد على التكنولوجيا المتقدمة، وعلى أساس تطور وسائل المواصلات والاتصالات، ومن منطلق الوعي السياسي والاجتماعي الذي يعتمد على تفرد التفكير والسلوك تجاه القضايا الإنسانية والعالمية، وانبثاقا من الاعتقاد بأن النظام الغربي كنموذج هو خير ضمان لسيادة العدل والسلام، وفي...، وعلى... ومن...، ظهر مفهوم العولمة، ويعنى هذا المفهوم في معناه اللغوي: تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله، وبذلك يتم جعل الشيء على مستوى عالمي،

بهدف نقله من حيز المحدود إلى أفاق اللامحدود، أى إلى أفاق العالم كله. وكتيجة طبيعية وحتمية لذلك، تتحقق التعاملات والتبادلات والتفاعلات فى جميع المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية بما يتجاوز الحدود الجغرافية للدول المختلفة، أى على مستوى العالم برتمه. وعليه فإن الحد الفاصل بين ما هو قومى أو وطنى وما هو عالمى أصبح هلامياً، ولا يمكننا وضع معيار أو إطار محدد له، وبذلك بات مفهوم العولمة متعدد الأوجه، ويعتمد بدرجة كبيرة على أساس السياق الذى يُستخدم فيه، وذلك يؤكد تجليات العولمة، فى المجالات التالية:

\* العولمة المالية، وتصف السوق العالمية الآنية للتجات المتعامل بها فى المدن المالية عبر العالم على مدى أربع وعشرين ساعة يومياً.

\* العولمة التكنولوجية، وتصف المجموعة المترابطة من تكنولوجيات الكمبيوتر والاتصالات وعمليات ربطها بالأقمار الصناعية، التى نجم عنها إجتياز حدود الزمان والمكان والانتقال الفورى للمعلومات عبر العالم.

\* العولمة الاقتصادية، وتصف نظم الإنتاج المتكامل الجديدة، التى تمكن الشركات الكونية من استغلال المال والعمل عبر العالم على اتساعه.

\* العولمة الثقافية، وتشير إلى استهلاك التجات الكونية عبر العالم، وتعنى ضمناً فى أكثر الأحيان التأثير المهيمن، كما فى تعبير "الكوكلة" Coca Golaization وعالم "ماك" Mc World.

\* العولمة السياسية، وتمثل انتشار الأجنده الليبرالية الجديدة المؤيدة لخفض إنفاق الدولة، والتحرير التشريعى، والخصخصة، والاقتصادات المفتوحة بوجه عام.

\* العولمة البيئية، وهى الخشية من أن تتجاوز الاتجاهات الاجتماعية الراهنة قدرة كوكب الأرض على البقاء ككوكب حى، وهى تمثل عولمة سياسية خضراء.

\* العولمة الجغرافية، وتعلق بإعادة تنظيم الحيز أو المساحة في الكوكب بإحلال الممارسات المتعدية للدولة القومية محل الممارسات الدولية في عالم تذوب فيه الفواصل الحدودية بصورة متزايدة... عالم ينظر إليه في أغلب الأحيان على أنه شبكة من الدول العالمية.

\* العولمة السيوسولوجية، وتعنى الخيال الجديد الذى يستشرف ظهور مجتمع عالمى واحد، أو كل اجتماعى مترابط يتجاوز حدود المجتمعات القومية.

إن تجليات العولمة آنفة الذكر تؤكد أنها ظاهرة متعددة الجوانب تحقق معدلات عالية في التجارة الدولية، وفي تدفق العمالة ورأس المال والتكنولوجيا بشكل متسارع غير مسبوق من قبل، فضلا عن التدفق الكثيف والهائل لمعدل انتقال الأفكار وأنماط الحياة، وذلك كله أسهم في زيادة الفجوة وتعميق الهوة بين الدول المتقدمة والدولة النامية، لصالح الدول المتقدمة، وفرض التبعية شبه المطلقة كقدر محتوم على الدول النامية لتسير في ركاب الدول المتقدمة، وذلك يمثل إشكالية حقيقية لا تقتضى فقط، وإنما تفرض أيضا، ضرورة عولمة الديمقراطية، وذلك ما يوضحه الحديث التالى.

### ثانياً : عولمة الديمقراطية :

لفظة الديمقراطية لفظة طنانة لها بريقها الخاص وجاذبيتها العجيبة، فهى تعنى من الناحية النظرية: حكم الشعب بالشعب، ولذلك يقوم نظام الحكم في الدول المتقدمة على أساس المجالس التشريعية والتنفيذية، حيث يتم انتخاب أعضاء هذه المجالس من قبل الشعب.

والحقيقة الصعبة أن الديمقراطية كمضمون ليس لها وجود حقيقى أو فعلى كامل حتى في الدول الديمقراطية، إذ لا يتم تطبيقها تطبيقاً واقعياً إجرائياً على جميع أنماط الحياة، ولذلك فإن الشعب في مجموعه لا يستفيد منها، ويقتصر تطبيقها على النخبة

فقط من المسؤولين. ويرجع عدم تطبيقها إلى حجة الحكومات في الدول المتقدمة إلى المحافظة على السلام والأمن من تهديدات القوى الخارجية والداخلية على سواء، فبدأ هذه الدول في تحقيق إجراءات استثنائية، مثل: مراقبة الاتصالات وفرض إجراءات تحد بدرجة ما من قدرة الناس عن التعبير عن آرائهم بحرية كاملة، لأن كل شيء محسوب عليهم.

وللأمانة، يتمتع الناس بدرجة معقولة من الحرية في الفعل والقول في الدول المتقدمة، قياسًا بالقيود المفروضة على نظرائهم في الدول الشمولية والسلطوية.

إذا لفظة الديمقراطية لفظة زئبقية، من الصعب الإمساك بها، في الدول المتقدمة، حيث يستخدمها الحكام في تحقيق مآربهم ومقاصدهم، بينما لا يوجد لها واقع فعلي في القاموس السياسي للدول النامية، وإذا تم استخدامها فيكون ذلك ذرًا للرماد في العيون.

وتشير تداعيات الأحداث الأخيرة أن الحكام في الدول المتقدمة يتفنون في استخدام مقالات مثيرة في خطاباتهم السياسية، مثل: رسم خريطة جديدة للعالم على أساس ديمقراطي، ومحاربة الإرهاب من أجل سيادة الديمقراطية، رغم إنهم لا يعيرون الديمقراطية إهتمامًا واجبًا بالنسبة للمواطنين في بلادهم، كما أنه لا يهتمون أساسًا بالنهج الديمقراطي وبتطبيقه في الدول النامية، وما يعينهم أولًا وأخيرًا مصالح بلادهم من أجل مزيد من السيطرة على الدول النامية، ولتحقيق الهيمنة الاقتصادية والعسكرية على مستوى دول العالم الثالث.

خلاصة ما تقدم، الديمقراطية مجرد إدعاء وزعم من قبل الحكام، تطبق بدرجات متفاوتة في الدول المتقدمة حسب المتغيرات والتداعيات التي تمر بها، وتعلن فقط كشعار في الدول النامية، دون أن ترى النور غالبًا. ففي الدول النامية، قد يتشدد الحكام بلفظة الديمقراطية ليحافظوا - فقط - على استقرار أوضاعهم السياسية.

مادام الأمر كذلك، من المهم بمكانة عولمة الديمقراطية، إذ عن طريقها يمكن تأكيد المسار الديمقراطي، وجعله أمرًا واقعيًا، يستفيد منه المواطن، سواء أكان يعيش في دولة متقدمة أم نامية، مع الأخذ في الاعتبار أن عولمة الديمقراطية تعنى من وجهة نظرنا ما يلي:

منهج أساسى للحكم، لا يفرق بين الدول الغنية والفقيرة في حقوق وواجبات المواطنين فيها، ولا يعطى امتيازات سياسية أو ثقافية أو اجتماعية أو اقتصادية للمواطن في الدول المتقدمة على حساب نظيره في الدول النامية. وعليه، يتم وضع التشريعات التي تكفل حقوق الإنسان في كل مكان، مهما كانت هويته، أو جنسه، أو لونه، أو دينه، أو عقيدته، أو انتماءاته السياسية، وبذلك يتم التعامل بين الدول بعضها البعض على أساس الندية والاحترام المتبادل، كما يتحقق التعامل الإنساني في أروع صورته بالنسبة للإنسان في كل زمان ومكان.

وعلى أساس التعريف السابق، يتم حماية مصالح الدول والأفراد على السواء، دون تدخل عبثى بحجة حماية الديمقراطية في بعض الدول، كما تتساوى مصالح الجميع أمام الهيئات والمنظمات الدولية.

### ثالثًا: عولمة الديمقراطية التربوية:

اقتصر الحديث السابق في مجمله على عولمة الديمقراطية في جانبها السياسى، فهل يمكن تطبيق ذلك في مجال التربية؟

التربية تخص أولاً وأخيراً الإنسان، ولذلك فإن تطبيق عولمة الديمقراطية في المجال التربوى أجدى وأكثر نفعاً من تطبيقها في المجالات الأخرى، لأن التربية هى الأساس الذى ترتكن إليه وتعتمد عليه شتى المجالات، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم ثقافية أم اجتماعية... إلخ. فالسياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع... إلخ، تقوم أساساً على تربية الإنسان، وتستمد فلسفتها وجذورها، وتؤكد تعاملاتها ومعاملاتها، على مدى تحقيق المفهوم الشامل والواسع للتربية.

إن فنون التربية - مهما اختلفت التصورات والرؤى عن طبيعتها وهويتها ودورها، ومهما تباينت النظم السياسية والاجتماعية في البلدان المختلفة - تتشابه بدرجة كبيرة، وتتحد في كثير من المهام والأهداف، وإن كانت تختلف في طرائق تنفيذها. ففي الدول المتقدمة، حيث يتم الاهتمام بالطفل منذ سنواته الأولى، يتم وضع التشريعات الكفيلة بحمايته، كما تعمل هذه الدول جاهدة من أجل تقديم تعليم معاصر يتماشى مع ظروف المكان والزمان. وإذا نظرنا نظرة فاحصة مدققة لأهداف التربية في الدول النامية، نجد أنها تتوافق - أيضا - بدرجة كبيرة من أهداف نظيراتها في الدول الغنية، ولكن من الصعب تحقيقها، بسبب ضعف وندرة الإمكانيات المادية، وهنا تكمن المشكلة الحقيقية. ولذلك من المهم طرح السؤال: وماذا عن مساعدات اليونسكو واليونسيف والبنك الدولي من أجل تطوير التعليم في الدول الفقيرة؟

على الرغم من الجهود العظيمة التي تبذلها المنظمات والهيئات الدولية المعنية بالتعليم، فإن هذه الجهود تذهب مع أدرج الرياح، فلا تظهر تأثيراتها وفعاليتها. إن عولة الديمقراطية التربوية، لكي يكون لها مردوداتها الإيجابية، يجب أن تقوم على تبنى المبدأ التالي:

تخطيط وتقييم برامج تربوية عالمية تقوم على أساس محاولة تحقيق المساواة المطلقة في حقوق وواجبات الأطفال والتلاميذ في مراحل التعليم الأساسى، الذى يبدأ من سن الرابعة إلى سن الرابعة عشر، وذلك على مستوى جميع دول العالم بلا استثناء، مهما اختلفت نظمها السياسية والاقتصادية، على أن توجه المساعدات والمعونات الخارجية لإصلاح أحوال تعليم الأطفال والتلاميذ، وفق خطط علمية عالمية، يتحمل مسئولية تصميمها وإعدادها والإشراف على تنفيذها نخبة متميزة من التربويين في الدول المتقدمة والنامية لضمان تكامل وشرعية الأهداف والمقاصد دون

فرض أهداف تحتية من قبل الدول المتقدمة، على أن تخصص نسبة لا تتعدى ٥٪ من ميزانيات تلك المساعدات والمعونات للمشاركين في التخطيط والتنفيذ والتقييم، وبذلك لا تستنزف مخصصات الأجور العينية الميزانيات المخصصة لعولمة الديمقراطية التربوية.

قد يقول قائل: أن المبدأ السابق مجرد حلم كبير، لا يمكن أبداً تحقيقه. لكن قبل الاستفاضة في توضيح وشرح كيفية جعل هذا الحلم الكبير واقعاً ملموساً، دعنا نذكر أنفسنا بالمسابقات الدولية في الرياضيات والعلوم واللغة والفنون، ألا تعكس هذه المسابقات بدرجة ما عولمة التربية؟ فإذا أخذنا في اعتباراتنا وحساباتنا الديمقراطية كمنهجية حياتية، أليس في الإمكان تعميم هذه المسابقات لتكون في شكل مناهج ومقررات تؤكد إمكانية عولمة الديمقراطية التربوية؟ أيضاً، هل من الصعب تحديد منهجية تربوية وتطبيقها على المستويين: المحلى والعالمى في ضوء احتياجات المعلمين؟

#### رابعاً: المدرسة المبدعة كمؤسسة تربوية :

المدرسة شأنها شأن المجتمع بالنسبة لجميع المقاصد والأهداف، فهي المكان الذى تلتقى فيه الأجيال من الكبار والصغار، وهى المكان التى تتقابل فيه الأفكار من شتى الاتجاهات والتوجهات، حتى وإن لم يعلن عن ذلك رسمياً، وهى المكان الذى يجب أن ترعاه الدولة وأن تسنده المؤسسات المجتمعية الأخرى، لأنه يمثل معمل أو مصنع إعداد الرجال المبدعين. فالمدرسة بعامة لا يجب أن يكون هدفها الرئيس مجرد إكساب المعلمين مجموعة من المعلومات والمعارف للحصول على شهادة علمية، فذلك الهدف رغم أهميته، فهو فى حقيقته يجب أن يمثل نقطة الانطلاق لتحقيق أهداف إبداعية، سامية ونبيلة فى رؤيتها للحاضر والمستقبل على السواء. فالمدرسة المبدعة كمؤسسة تربوية، تتلاقى مصالحها ومقاصدها المعلنة والصريحة مع مصالح ومقاصد بقية المؤسسات. وفى الدول المتقدمة، هناك دعوة قوية بأن تقود المدرسة

حركة التغيرات - وأحيانا التغيرات - التي يجب تنفيذها من أجل مصلحة المجتمع. بمعنى؛ المدرسة كمؤسسة يجب أن تتلمس نقاط القوة والضعف في شتى مجالات وميادين المجتمع، وأيضا يجب أن تمتلك زمام الأمور بالنسبة لمقابلة العضلات التربوية وفق منهجية إبداعية، ولذلك تنطلق دعوات الإصلاح في الدول المتقدمة من بين جدرانها.

وعلى صعيد آخر، تتسم الدول الديمقراطية بأن مؤسساتها - ومن بينها المدرسة - تعمل وفق نظام إبداعى متكامل، بحيث تنبثق أهدافها من ظروف المجتمع، من أجل أن تعمل لصالح المجتمع. ولأن المدرسة هي المؤسسة الوحيدة التي لا يمكن الاستغناء عن خدماتها، طالما يوجد أولاد وبنات في سن الدراسة، فإن المجتمع يرهاها، ويهتم بها مادياً وعلمياً واجتماعياً. قد تستغل بعض الدول هذه الناحية من أجل تحقيق مقاصدها، بتوجيه التعليم حسب مقاصدها، وبخاصة في الدول الشمولية. ورغم ذلك، يمكن أن تمثل المدرسة حائط صد قوى ضد المحاولات المشبوهة التي تعمل على ملأ عقول الأطفال والتلاميذ بمقاصد أو خزعبلات تشوه سريرتهم، وتسير بهم في طرق مسدودة. حقيقة، ما أكثر المحاولات الهدامة المغرضة التي تسلت عبر بعض المناهج الدراسية، والتي استهدفت غرس بذور الفتنة والتطرف في نفوس التلاميذ، والتي عملت على تشويه المعاني الجميلة الصافية داخل عقولهم وقلوبهم، والتي حالت دون تفجير طاقات التلاميذ الإبداعية، والتي وقفت بقوة ضد تنمية وتطوير ملكات التفكير الإبداعى عند التلاميذ، ولكن سرعان ما تتكشف الأمور، ويتم تعديل مسار المدرسة بها يحقق أهدافها الرصينة البناءة.

المدرسة كمؤسسة مبدعة هي المكان الوحيد الذى يعكس المجتمع بطريقة صحيحة، لأنها تضم جميع أطراف المجتمع. فالأطفال والتلاميذ في المدرسة هم أبناء المثقفين والمتعلمين والعاديين، كما أنهم أبناء الأغنياء المسورين ومتوسطى الحال

والفقراء، وهم أبناء العلماء وأصحاب المراكز الاجتماعية المتقدمة وأبناء العمال والأفراد الذين يشغلون وظائف أو يحتلون مراكز متدنية. المدرسة صورة حقيقية واضحة المعالم بالنسبة للمجتمع، بكل ما فيه من تجليات وتداعيات.

قد يقول قائل: إن ما تقدم غير دقيق في وقتنا الحالى، بعد ظهور فروقات واضحة بين المدارس الخاصة والمدارس الحكومية، إذ يلتحق بالمدارس الخاصة أبناء الأثرياء وأصحاب الجاه والنفوذ، بينما تكون المدارس الحكومية المكان الإجبارى لأبناء الفقراء والمعدمين، الذين يريدون تعليم أبناءهم، وليس لهم من سبيل، غير المدارس الحكومية.

ما سبق صحيح من الناحية الشكلية، ولكن إذا أخذنا في الاعتبار عدد المدارس الحكومية قياسًا بعدد المدارس الخاصة، لوجدنا أن الفرق لصالح المدارس الحكومية، إذ من الصعب أن تستوعب المدارس الخاصة جميع التلاميذ، حتى لو توفرت لهم إمكانات الالتحاق بها.

وعلى صعيد آخر، بفرض أن أبناء الفقراء يلتحقون بالمدارس الحكومية ليكون التعليم مطيبتهم لتبوأ مراكز اجتماعية متقدمة، فإنهم يعملون على تحقيق ذلك باجتهاد عظيم وبجهد مضنى، وليس أدل على ذلك من نتائج الثانوية العامة، التى تظهر سنويا احتلال طلاب المدارس الحكومية المراكز الأولى والمتقدمة.

وعلى صعيد ثالث، رغم استغلال بعض المدرسين فى المدارس الحكومية التلاميذ ماديًا فى صورة دروس خصوصية تستنزف جزءًا كبيرًا من دخل الأسر، فإن نسبة كبيرة لا يستهان بها من المدرسين يعملون بأمانة منقطعة النظر، وخاصة فى المدارس الحكومية الواقعة فى المدن الصغيرة والأرياف، وذلك يؤثر إيجابًا على مستوى تحصيل التلاميذ.

خلاصة القول، المدرسة كمؤسسة تربوية مبدعة، يجب أن يكون لها أهدافها الكثيرة، التى يجب أن تتحمل مسئولية تحقيقها. ولكن - للأسف - ما يحدث يخالف

ذلك تماما، إذ توجه المدرسة جهدها الأعظم ناحية التحصيل الدراسي، دون النظر إلى اعتبارات أهم، تمثل آدمية الإنسان وتعكس كينونته، فهل يكون ذلك مدعاة للعولة الديمقراطية التربوية؟! إجابة هذا السؤال يتصدى لها الطرح التالي:

#### خامساً: عوالة الديمقراطية التربوية لإصلاح التعليم المدرسى وفق منهجية الإبداع:

في وقتنا هذا، يقتصر دور المدرسة كمؤسسة تربوية على الاهتمام بالجانب العقلي للتلاميذ، في صورة شكلية، لأن التعليم يقوم على أساس ثقافة الذاكرة، دون اهتمام يذكر بقابليات التلاميذ وفهمهم وتفكيرهم وتوجهاتهم ومقاصدهم المأمولة، فهل عوالة الديمقراطية التربوية تنقلنا نقلة واسعة نحو ما ينبغي أن تقوم به المدرسة كمؤسسة مبدعة؟

يمكن أن تكون الإجابة عن السؤال السابق (نعم)، للأسباب التالية:

\* في ظل عوالة الديمقراطية التربوية، يمكن تحديد أدوار ومهام جميع أطراف العملية التربوية بدقة متناهية، في كل مكان وزمان، وبذا نضمن عدم سيطرة أو هيمنة طرف بعينه على بقية الأطراف، مهما كانت المكانة التي يتبوأها، وبذلك تسير المدرسة في الطريق الصحيح والسليم لتحقيق أدوارها. وفي هذا الشأن يمكن أن تختلف أدوار المدرسة وفقاً لظروف البيئة الموجودة فيها، ورغم ذلك، فإن أساسيات تلك الأدوار تكون واحدة لأنها تنبثق أساساً من حاجات المتعلمين واهتماماتهم، وهذه وتلك لا تختلف كثيراً باختلاف المكان، ناهيك عن أن أدوار المدرسة فى جملتها تتمحور حول تهيئة الظروف المناسبة للمتعلمين بما يحقق لهم مستقبل أفضل، وذلك ما تؤكد الديمقراطية كقيمة حياتية وكمنهج سياسى وكأسلوب تربوى إبداعى.

\* في ظل عوالة الديمقراطية التربوية، يتم دوماً فرز المقررات والمناهج، حيث يتحمل مسؤولية هذا العمل نخبة من التربويين الممتازين، على المستويين: المحلى

والقومي والعالمي، على السواء، وبذلك نضمن وضع الخطوط العريضة للمقررات والمناهج بحيث لا تنحرف عن مسارها الطبيعي المرسوم لها. إن هذا الإجراء يحمى الأطفال والتلاميذ من التأثيرات المدمرة والمؤذية والضارة لبعض المضامين الخفية، حيث يعتمد بعض مصممي المناهج وبعض مؤلفي الكتب المدرسة إقحام موضوعات دراسية بعينها لتحقيق مقاصد مشبوهة تخدم توجهاتهم المفرضة.

إن أخطر ما في العملية التربوية هو المقررات والمناهج التي يتم تقديمها للأطفال والتلاميذ، لأن محتواها يترسب ثم يتجذر في أعماق هؤلاء الأطفال والتلاميذ، ولذلك يجب وضع تلك المقررات والمناهج تحت الفحص الشامل والمستمر، وذلك يعني عدم تدخل أطراف بعينها لإقرار مضمون ومحتوى تلك المقررات والمناهج، لأن كل شيء يتم تحديده بمعرفة الجميع، وفي النور، وبالتالي لا توجد أية شبهة لتحقيق أغراض فاسدة مقصودة لصالح الدول المتقدمة أو لفائدة جماعات بعينها، على حساب الدول النامية أو على حساب السواد الأعظم من الشعب.

\* في ظل الديمقراطية التربوية وفق النهج الإبداعي، تنتفي معادلة الشهادات التي يحصل عليها الطلاب في أي دولة من الدول، لأن الجميع يدرس الأساسيات المطلوبة للحصول على الدرجات العلمية، وبالتالي يمكن لأي طالب استكمال دراسته إذا اقتضت الضرورة الانتقال من بلد لآخر، وبذلك لا يوجد في المدرسة طلابا يعانون من مشكلة الثقافات المتعددة. ولا يعني ما تقدم أن جميع الأطفال والتلاميذ سوف يتم صبهم جميعا في قوالب واحدة معولمة، بما يلغى الذات الثقافية التي تميز بلد عن آخر، وإنما يعني تقارب المسافات بين الثقافات بما يحقق تلاحقها وتفاعلها فيما بينها، وبذلك نضمن تجاوز وعبور الهوة الثقافية والحضارية التي

تفصل بين الناس بعضهم البعض، فى كل مكان. ومرة أخرى، نؤكد أن هذا البعد لا يلغى الثقافة القومية لبلد ما، ولكنه يعنى الانفتاح على الثقافات الأخرى، والتعامل معها من قرب بذكاء وحكمة، ليحدث التأثير المتبادل والمنشود بين جميع الثقافات بلا استثناء، وذلك يسهم بدوره فى لقاء الحضارات، ويجول دون تصادمها.

\* فى ظل عولمة الديمقراطية التربوية، تتحقق مجموعة من المخرجات الإبداعية التربوية ولعل من أهمها ما يلى:

- ضمان صرف المساعدات المادية والمعونات التقنية التربوية وفق أهداف صريحة محددة سلفاً، تتضمنها خطوط تطوير التعليم، على أساس المنهج الإبداعى.
- عدم المغالاة فى المصاريف المخصصة لمكافآت بعض الكوادر التربوية، وبخاصة الأجنبية التى قد تضطر للاستعانة بخدماتها فى بعض المجالات.
- مساندة التطورات الخاصة بتطوير التعليم على مستوى العالم أولاً بأول، إذ يتم الاطلاع الجماعى على كل حديث ومتقدم فى العلم والتكنولوجيا.
- تدريب الكوادر التعليمية الوطنية والقومية على التوجهات التربوية المعاصرة.
- تأكيد الديمقراطية فى إدارة التعليم كأسلوب أمثل لحل مشكلاته ومعضلاته.
- النظر بعين الاعتبار للقضايا التربوية القائمة بالفعل، والقضايا التربوية المستقبلية المتوقع حدوثها، مع وضع الخطط المناسبة لمقابلتها.

تأسيساً على الحديث آنف الذكر، حقيقة، أدوار المدرسة المبدعة عديدة ومتعددة، ناهيك عن إمكانية صبغها بصبغة عالمية، تتعدى الحدود الإقليمية لأدوار المدرسة، لأنها تركز جل اهتمامها حول الاهتمام بالإنسان: عقلياً ووجدانياً وعاطفياً ونفسياً

وسلوكيا وأخلاقيا... إلخ، وهذه الاهتمامات بمثابة واجب إنساني، يجب رعايته والتركيز عليه، ليتمكن الإنسان في كل زمان ومكان من تبوأ المكانة الراقية التي سباه الله بها، دون سائر الكائنات الحية الأخرى، لذلك يجب النظر إلى التربية من منظور عالمي إبداعي، على أن تكون الديمقراطية هي أسلوب التعامل بين جميع التربويين في مختلف أنماط تعاملاتهم داخل المدرسة وخارجها، وأيضا أن تركز الديمقراطية على منهجية التفكير الإبداعي بما يحقق وثبات ووثبات في طريق تطوير وتنمية التعليم والتعلم.

إننا لا نبالغ القول، ولن نذهب بعيداً إذا قلنا أن قضية التعليم قضية كل زمان ومكان، لذلك فإنها بحق قضية خطيرة تستحق إضاءة إشارات (وليس إشارة واحدة) همراء، كما تستوجب دق الأجراس العالية، حتى ينتبه الجميع لخطورة الأوضاع المتردية التي يعاني منها التعليم في جميع مجالاته وميادينه.

وما يؤكد ما ذهبنا إليه فيما تقدم أننا نسمع عن تطوير التعليم منذ أكثر من خمسين سنة مضت، ولا تزال أحواله كما هي، لم تتحرك قيد أنمله أو خطوة واحدة للأمام، فالتطوير المزعوم تطرق إلى مناهج التعليم وطرائق التدريس وتكنولوجيا التربية وأساليب التقويم، ولا حياة لمن تنادى، إذ إن المستقراً لأحوال التعليم يجد أنه مع كل قيادة تربوية جديدة نسمع أصواتاً عالية تبشر بقدم التطوير المنتظر، كما تدق الطبول إيذاناً بمرحلة جديدة للتعليم تواكب متطلبات العصر ومستحدثاته.

وفي السنوات الأخيرة، وقعت الصدمة المفجعة، لأننا إستعنا بخبرات أجنبية لتطوير التعليم، وكأننا نفتقر، أو لا نجد من بين القيادات الوطنية التربوية من يستطيع تحمل المسؤولية. إننا لسنا ضد الانفتاح على الآخرين للاستفادة بمنجزاتهم بعد تعديلها بما يتوافق مع إمكانياتنا وظروفنا وأحوالنا وأوضاعنا، ولكننا نرفض تماماً أن تخطط الخبرات الأجنبية (إن كانت تمثل بالفعل خبرات تربوية حقيقية) لتطوير أوضاع تعليمنا.

ومن خلال الحديث التالى، نتحدث عن الأهداف المعاصرة لمناهج التعليم التى يجب تأكيدها، والعمل بجدية وإخلاص من أجل تحقيقها من أجل تطوير الإنسان وتنميته، وذلك إنطلاقاً من العلاقة وثيقة الصلة بين أهداف التعليم والبنية الاجتماعية، كما يتطرق الحديث إلى دراسة الأهداف التالية:

- \* السلام الاجتماعى كهدف تربوى.
- \* التعامل مع الآخر كمنطلق لتحقيق التواصل التربوى.
- \* نقد الذات وتشكيل عقل المتعلمين.
- \* تأكيد حق معارضة المتعلمين للمعلمين وفق أسس تربوية صحيحة.

### أولاً: أهداف التعليم والبنية الاجتماعية:

تمثل أهداف التعليم عصب البنية الاجتماعية لأى مجتمع من المجتمعات، لأنها تعكس طبيعة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية فى مرحلة تاريخية بعينها لهذا المجتمع. وما يؤكد ذلك، أنه فى المجتمعات الشيوعية آنذاك، كانت مناهج التعليم تبشر بالقيم الأخلاقية، دون أن تردّها إلى أصولها ومنابعها الحقيقة، ونعنى بها الديانات السماوية، بينما ترد مناهج التعليم فى المجتمعات الأصولية كل شيء إلى الجذور الدينية، لدرجة أنها تربط السياسة بالدين، والعلم بالدين، والاقتصاد بالدين، وهلم جرا. وأيضاً فى المجتمعات السلطوية والفاشستية، تمجد مناهج التعليم الزعيم الملهم، وترفض تبادل السلطة أو أخذ المشورة، بينما تؤكد مناهج التعليم فى المجتمعات الديمقراطية المنهجية الديمقراطية كأساس للحكم. وفى المجتمعات الاشتراكية، تبين مناهج التعليم أهمية وقيمة وفاعلية الاقتصاد المقيد والموجه، بينما ترفض مناهج التعليم فى المجتمعات الديمقراطية فكرة إشراف الدولة على الاقتصاد، وتوضح أهمية الاقتصاد الحر القائم على آلية العرض والطلب.

ومن منطلق أن التعليم (كما قلنا من قبل) من خلال المناهج التي يقدمها يمثل صلب البنيان الاجتماعي، فإن مناهج التعليم يجب أن تعمل كقوة داعمة وحاكمة لتوجيه عقول الأطفال والتلاميذ. وهنا يظهر الموقف حرجًا للغاية في ظل المطالبة بتحرير التعليم من القيود المفروضة عليه، وفي ظل تأكيد أهمية أن يتمتع المدرس والتلميذ على السواء بمساحة حرية نوعية أو نسبية بالنسبة لتحديد موضوعات مناهج التعليم وطرق تدريسها.

إذا عملت مناهج التعليم كقوة فاعلة، تستطيع أن تحكم وتتحكم في المتطلبات التربوية للتلاميذ، فإن بعض الحكومات في بعض الدول تستطيع أن تستغل هذا الوضع لتأكيد قيم التطرف والإرهاب، ولترسيخ نزعة التعصب في عقول وقلوب التلاميذ. ولا نغالي القول إذا قلنا أن تحكم الحكومات في مناهج التعليم، يعمل على تغذية عقول التلاميذ بمبادئ التربية المتعصبة، وهذه وإن كانت تشكل نوعًا من الضمان والأمان في تحقيق الولاء الكامل والمطلق للدولة، فإنها - في الوقت نفسه - لا تؤكد فقط أهمية عدوانية التلميذ كنوع من الحماية له، بحجة التعبير عن ذاته، حتى وإن كان السبيل لتحقيق ذلك ممارسة أساليب القهر والاستبداد، بل تعمل أيضًا على تزيين الشعور السلطوي عند التلميذ، لأنه الطريق الأمثل لأخذ حقوقه كاملة.

إن رفض تدخل الحكومة في إقرار هوية المناهج وتركيباتها، قد يفتح الباب على مصراعيه، وهنا تكون الطامة أعظم، إذ إن عدم تدخل الحكومة في بناء وتصميم المناهج قد يؤدي إلى ظهور مردودات تربوية سلبية، حيث نجد بعض موضوعات المناهج تتمركز حول قيم مفجعة مرفوضة في عصرنا هذا، مثل: العدوان والتعصب والكرامية والتطرف ورفض الآخر ومقاومة السلطة... إلخ، فما بالنا لو تركت الأمور على أعتائها، لتتحرك حسب هواها، فالخراب قادم، والدمار لا شك فيه.

إذا القضية بجانبها صعبة وشائكة، لأن تدخل الحكومة في تحديد المناهج من

حيث نوعيتها وموضوعاتها يسلب مساحة عريضة من حرية المدرس والتلميذ، كما أن ترك المساحة لاجتهادات المدرس والتلميذ قد يقودنا إلى السير في طريق مسدود، يؤدي بنا إلى كوارث وويلات لا يعلم آخرتها إلى الله وحده.

والسؤال: ما العمل في ظل بنيتنا الاجتماعية غير المستقرة، وغير ثابتة الأركان؟

الحقيقة التي لا تحتل الشك أو التأويل، أنه من الصعب بمكانة تحديد الأهداف التربوية للمناهج الدراسية في وجود الأوضاع الحالية السائدة للبنية الاجتماعية، وخاصة إذا كان المطلوب يتجاوز حدود الأهداف المعمول بها، والتي تتمحور في جملتها حول المواد الدراسية فقط.

بمعنى؛ لأننا في عصر العولمة، ونعائين ونشاهد ونلمس ملامح الانفجار المعرفي وثورة المعلوماتية، يجب تحديد أهداف المناهج الدراسية على أساس الإنطلاقة الإبداعية العظمى التي يجب أن تتحملها المناهج من أجل بناء الإنسان المبدع من جهة، ومن أجل العمل على تثبيت البنية الاجتماعية إبداعياً من جهة أخرى. فالمنهج ليس مجرد أداة لتعليم التلميذ مجموعة من المفاهيم والحقائق والمهارات الدراسية المقررة، وإنما هو أداة في يد الساحر أيا كان موقعه (المدرس، الموجه الفني، مدير المدرسة، ... إلخ) لتحقيق طموحات غير مسبوقة، وترتبط ارتباطاً مباشراً بحياة التلميذ داخل المدرسة وخارجها، ولها علاقة مباشرة بحاضر التلميذ ومستقبله، فكل شيء سواء أكان تربوياً أم علمياً أم ثقافياً أم اقتصادياً أم سياسياً أم اجتماعياً... إلخ، يندرج تحت مظلة المنهج. والتعليم الذي يسهم في اكساب التلاميذ إبداعات غير مسبوقة، ليس فقط حقاً من الحقوق الأساسية للإنسان، ولكنه مسئولية من جانب الحكومات والأفراد، وهو ليس فقط مسئولية، بل هو أيضاً استثمار لأنه يقع في صلب عملية التنمية الإبداعية. فالتعليم حق طبيعي أكدته ودعمته المواثيق الدولية التي أصدرتها منظمات الأمم المتحدة المختلفة على المستويات الدولية والإقليمية والمحلية.

وتقع مسئولية التعليم - سواء أكان نمطياً أم إبداعياً - على كاهل الحكومات في الأساس، ثم المجتمعات الأهلية، والأهل بنفس الدرجة والأهمية، وهنا تتمكن المعضلة الحقيقية بالنسبة لتحديد الأدوار المستويات التي يجب أن يتحملها كل طرف من الأطراف.

ولأن الأرقام باتت مخيفة، تلك الأرقام التي لا تكذب ولا تتجمل، بل تقول بكل صراحة أن هناك ١١٣ مليون طفل في العالم خارج منظومة التعليم، منهم ٧٠٥ مليون طفل عربي، ٦٠٪ منهم من الفتيات!! وذلك ما يجعل بعض الدول العربية في الأدنى من بين دول العالم في قائمة تعليم الفتيات. ففي جيبوتي ٣٠٪ من الفتيات فقط يلتحقن بالتعليم و ٤١٪ في اليمن و ٤٥٪ في السودان و ٥٧٪ في السعودية و ٧٦٪ في عمان، وهذه معضلة أخرى أشد صعوبة في فحواها ومضمونها.

وعلى الرغم من الدور المهم للمرأة، إذ على أساسها يمكن ترسيخ البنية الاجتماعية في صورها المادية، وأيضا في صورها المعنوية التي تتمثل في القيم والأخلاق والانتهاج وحب الوطن وهلم جرا، فإن الأرقام تكشف عن أن الفجوة النوعية بين البنين والبنات ما زالت كبيرة، تلك الفجوة التي تشير إلى الفارق بين نسبة البنين ونسبة الفتيات الذين يقفون خارج المنظومة التعليمية التي تصل إلى ١٤٪ في الابتدائي و ١٦٪ في الثانوي، وهي من أعلى النسب في العالم.

وتقع المسئولية في الأساس على الحكومات في توصيل التعليم لجميع الأطفال، وفي ورفع جودة التعليم وجعل المدارس جاذبة وليست طاردة للفتيات في سن التعليم الإلزامي. أن مسئولية التخطيط وإنشاء هياكل لاستمرارية التعليم في الدول النامية تقع كلها على كاهل الحكومات، ففي مصر شاركت ١٨ وزارة في وضع الشكل القومي للمؤسسة التعليمية، من وزارة التربية والتعليم إلى وزارات أخرى

مثل المالية والاقتصاد. بالإضافة إلى المسئولية الرسمية، هناك مسئولية مصاحبة من جانب الجمعيات الأهلية، والعمل التطوعي، حيث من الضروري العمل على التنسيق الكامل بين الجانبين من أجل تفعيل تعليم الفتيات.

أما بالنسبة للأهل فتقع على عاتقهم مسئولية كبيرة بالنسبة لقضية التعليم والتعلم، حيث يمثلون الخلية الأولى التي منها تنطلق الفتيات إلى العلم أو إلى الجهل، والأسباب تختلف، منها عدم اقتناع الأهل بمردود التعليم بالنسبة للفتيات، أو الفقر. فالعائلة الفقيرة التي لا تستطيع إرسال جميع أبنائها إلى المدارس تفضل إرسال الإبن بدلا من الإبنة، فضلا عن الأسباب الاجتماعية والثقافية التي تؤيد بشدة هذا التوجه، مثل الزواج المبكر للبنت.

**والسؤال: كيف يكون تعليم الفتيات بمثابة استثمار حقيقي؟**

ويتفرع من السؤال الرئيس السابق مجموعة الأسئلة التالية:

هل يمكن لأي بلد أن يتقدم قبل أن يتقدم أولا شعبه؟ وهل يمكن أن يتقدم الشعب قبل أن تتقدم بناته؟ وهل لابد أن يوضح لنا توماس ماكدورموت، المدير الفني الإقليمي لليونيسيف لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا أن تعلم البنات من أهم العوامل في تنمية الدول، لأنه يقلل نسبة الوفيات لدى الأطفال ونسبة الأمراض ونسبة الوفيات لدى الأمهات، ولأنه يعمل على تنظيم الأسرة ويزيد من إنتاجيتها وبالتالي المجتمع ككل؟

والتعليم بعامة - سواء أكان للبنين أم البنات - ضرورة حتمية لا يمكن تجاهلها، ويصبح على المجتمع التكاتف من أجل إزالة العوائق وبناء ما يطلق عليه المدارس الصديقة الجاذبة التي تنجح، ليس فقط في جذب التلاميذ إليها، ولكن أيضا النجاح في إبقائهم فيها حتى نهاية المرحلة التعليمية.

ولكن: ما مفهوم المدرسة الصديقة؟

هناك مدارس طاردة كثيرة لأسباب متفاوتة، منها أسباب خاصة بمكانها ومنها أسباب سياسية، وأحيانا تتحول المدرسة إلى عدو، لأن المدرسة فيها ضرب، كما تفتقد بعض المدارس إلى أبسط الضروريات مثل المرافق الصحية. وأحيانا أخرى يصبح التعليم مسألة انتقائية لصالح الأولاد، حيث لا تجد الفتاة في المناهج قدوة تحتذى بها، ولا تجارب سابقة تستفيد منها.

ولكى نتخطى تلك العوائق يجب تأكيد دور المدارس المبدعة الصديقة، والمعروفة في مصر باسم مدارس المجتمع، التي تسير على مبدأ "لا تعلمنى ولكن علمنى كيف أتعلم"، ولأن قضية التعليم هي قضية كل الدول العربية، فإن الهم واحد والأوليات والأهداف أيضا يجب أن تكون واحدة، ولأن الهدف الأساسى لكل دولنا، هو التنمية والتقدم، فإنه دون تعليم التلاميذ تعليما إبداعيا جيدا، لن يتحقق الهدف، لذلك فإن علينا جميعا حشد كل إمكانياتنا لكي يتحقق الهدف.

أول تلك الإمكانيات هو المشاركة الفعالة بين المسؤولين والخبراء والإعلاميين، مع الإشارة باهتمام إلى تدريب الإعلاميين في قضايا حقوق الطفل، لأن الإعلامى هو الذى يقوم بعملية الحشد والتعبئة الاجتماعية وتغيير الاتجاهات، وهو الذى يعمل على تمكين الأهل والمجتمع بالمعرفة، وعلى كل تربوى مسئول أن يحدد التزاما واحدا يسعى لتحقيقه في مجال دعم التعليم الإبداعى، ما بين إعداد برنامج إذاعى، أو فيلم تلفزيونى، أو مجموعة مقالات صحفية عن أهمية التعلم. وما بين إعداد مؤتمرات ودورات تدريبية للتعريف بأهمية هذه القضية، تتعدد المسئولية كما تتعدد المقترحات والأفكار، ولكن الهدف للجميع واحد: ترجيح مصلحة الطفل والطفلة على أى اعتبار آخر، ذلك هو الاستثمار الأمثل، الاستثمار الذى ليس له خسارة، بل مكسب دائم وعلى طول الطريق.

## ثانياً: أهداف معاصرة لمناهج التعليم الإبداعي يمكن أن تنبثق من البنية الاجتماعية؛

إنطلاقاً مما تقدم، وتأسيساً عليه، فإننا نقدم بعض الأهداف التربوية المعاصرة المأمولة من تعليم وتعلم المنهج، بعيداً عن صورتها التقليدية التي تتمحور حول الأساس المعلوماتي فقط. وهذه الأهداف الإبداعية كثيرة ومتعددة، ولا يمكن حصرها في مساحة ضيقة، ولذلك قلنا أننا سوف نقدم بعض النماذج فقط، ويمكن للآخرين الاجتهاد لإكمال ما قد بدأناه.

### (١) السلام الاجتماعي كهدف تربوي:

كتب محمد سامح سعيد مقالاً بعنوانه (السلام الاجتماعي)، ونشر في جريدة الأهرام بتاريخ ١١/٥/٢٠٠٦، قال فيه: "لاشك في أن مشكلة البطالة أصبحت المشكلة الرئيسة الآن في مصر، وليس هناك أدنى شك في أن اليأس والإحباط الذي يعيشه الشباب الآن وفقدان الثقة في المستقبل ينذر بأوخم العواقب. ماذا نتوقع من شباب لا يعرف طريقة، وليس له هدف ولا رؤية ولا أمل في الحياة، شباب يرى أنه لا جدوى من التعليم أو الشهادات ولا فائدة من المعرفة لأن النتيجة واحدة وهي البطالة. لا يمكن أن تستقر الأمور هكذا. يريد الشباب - ومن حقه - فرصة عمل، يريد مسكناً ويريد أن يتزوج. هذه حقوق أساسية في الحياة لا يمكن أن نتجاهلها. والحل هو أن تتبنى الدولة قطاع الاستثمار الاستراتيجي ليستوعب التخصصات النادرة العاطلة.

الاستثمار الاستراتيجي يشمل الصناعات الثقيلة والصناعات الإلكترونية والدقيقة وصناعة الطيران ووسائل النقل والصناعات المعدنية والبتروولية والكيميائية وغيرها من الصناعات التي لن يستثمر فيها القطاع الخاص الداخلي ولا الخارجي ولا في مائة عام. ولا مانع من أن تكون هذه الصناعات تابعة لجهاز مشروعات الخدمة الوطنية للقوات المسلحة أو وزارة الإنتاج الحربي أو وزارة

الدفاع باعتبار هذه المؤسسات من أكثر الجهات تنظيميا وانضباطا وشفافية. ولا مانع أيضا من تشجيع القطاع الخاص على تشغيل الشباب بربط التسهيلات التي تعطى للقطاع الخاص بعدد الوظائف التي يوفرها، لا أن تكون حقا مكتسبا بلا مقابل يقدم للمجتمع. ولا بد من ربط الإعفاءات الضريبية بما يقدمه رجال الأعمال من خدمة عامة مثل إنشاء المستشفيات والجامعات الأهلية غير الربحية والمتاحف. ولا يخفى أن الجامعات في أمريكا مثلا تعتمد على تبرعات خريجيها ومساهمات رجال المال والصناعة والمشروعات البحثية الممولة، بينما تمثل رسوم الدراسة ثلث المصروفات فقط. إذا حسبنا الخسائر التي يتحملها القطاع الخاص نتيجة العنف وعدم الاستقرار وحالة اليأس عند الشباب وتراجع الاقتصاد بسبب هذا القلق فإن هذه الخسائر يمكن تفاديها إذا أنفقت نصف هذه الأموال لخلق مشروعات تستقطب الشباب. نعم، لا بد من الحفاظ على أمن المجتمع وسيادة القانون، ولكن أيضا احترام كرامة المواطن وحقوقه وآدميته. الكراهية أوصلت البعض إلى الخروج عن الاتزان والحيود عن صحيح الدين والطبيعة المصرية الأصيلة السمحاء. هذا الوطن يحتاج إلى تصالح مع نفسه، يحتاج إلى تحديد العدو الحقيقي الآن، وهو الضعف الاقتصادي والتخلف العلمي والتكنولوجي والجهل والجهالة. هذا هو العدو الحقيقي الذي أماننا، ولن نقدر عليه بالانفرادية والأناية وتجاهل المشكلات. بل بالعلم والإيمان السليم، بالعقل والعمل، وبالإرادة الجادة والسلام الاجتماعي.

والسؤال: ما هدف فحوى ومضمون الحديث السابق؟

\* البطالة مشكلة تصيب الشباب باليأس والإحباط، وتفقد الثقة في مستقبله.

\* الاستثمار الاستراتيجي له أهمية خاصة في تشغيل الشباب.

إذا حللنا مناهجنا المعمول بها من حيث أهدافها، نجد أن تلك الأهداف لا يتضمن محتواها كيفية مواجهة الحياة العملية عن طريق إعداد المعلمين لبعض الاختيارات المهنية، فالواقع يشير إلى أن المناهج بوضعها الحالي تعمل على تكديس

عقول التلاميذ بالمعارف والمعلومات، دون اعتبار يذكر لشغل الوظائف على أساس متطلباتها. وليس أدل على ذلك من أن شهادة إتمام الدراسة الثانوية العامة لا يعتد بها في التوظيف. حقيقة يعاني الشباب من بطالة صعبة، سواء أكانوا من خريجي المدارس الثانوية أم من خريجي الجامعات، ولكن ذلك لا يعفى المسئولين من مسئولية بناء وتصميم المناهج على أساس الموازنة بين الجانبين: النظرى والعملى، حيث تتمحور في التعليم قبل الجامعى على المعلومات النظرية فقط، لدرجة أن التجارب العملية والمعملية لا تجد لها موقعا على خريطة مناهج التعليم قبل الجامعى.

والحقيقة أن وضع مناهجنا على أساس مجموعة من التكتلات النظرية التى تتسم بالصعوبة والتعقيد، لا يسهم في تحقيق السلام الاجتماعى، ويزيد من معاناة التلميذ بسبب تعقدها، وذلك يجعله كأنه يسبح ضد التيار، ناهيك عن افتقارها للجانب الترويجى، وعدم إتاحتها الفرصة أمامه لدراسة بعض الدراسات المهنية التى قد تساعده في إيجاد وظيفة يتعايش منها، تعقدها، وذلك يجد أنه لا فائدة مما يدرسه لعدم ارتباطه بالحياة العملية، وعليه أن يكمل مشوار تعليمه الجامعى دون قناعة أو اقتناع في حالات كثيرة. وبعد التزام الطالب بمواصلة الدراسة الجامعية بكل أعبائها المادية والمعنوية والذهنية والانفعالية والوجدانية، ينهى المتعلم دراسته، وقد يكون من المتفوقين، ويبدأ رحلة المتاعب، حيث يبحث عن عمل يسترزق منه، فلا يجد، ثم يكتشف أن نسبة كبيرة من زملائه العاديين غير المتفوقين يحصلون على وظائف برواتب عالية جدًا، وهو يضطر أن يعمل في بعض المهن المتدنية والوضيعة، التى لا تدر دخلاً يكفى سد مستلزماته الأساسية والضرورية. هنا، تكون نقطة اللاعودة بالنسبة لأعداد كبيرة من الشباب، حيث يكفرون بفكرة السلام الاجتماعى، ويتندرون عليها، وقد يصل الأمر ببعضهم للسير في طريق الشر والتدمير ليكونوا كمخالب قط في مخطط مرسوم خارجيًا، وينفذ داخلًا، من أجل ترويع أمن وأمان

المواطنين، ولعل الأحداث الأخيرة التي حدثت في الإسكندرية وشرم الشيخ وذهب خير دليل وأصدق شاهد على ذلك.

ومما يذكر أن منهجية مقاومة السلام الاجتماعى قد ترسب في أعماق أعداد هائلة من التلاميذ خلال دراستهم في المرحلة الثانوية، إذ تتطلب هذه الدراسة إمكانات مادية كبيرة، ليستطيع التلاميذ أخذ الدروس الخصوصية التي تساعدهم في الحصول على درجات عالية تؤهلهم للالتحاق بالجامعة، ولكن هذا الأمر قد يكون صعباً بالنسبة للتلاميذ الفقراء، إذ رغم أن نسبة عالية منهم، قد يمتلكون إمكانات ذهنية عالية، فإنهم قد يفشلون في مواصلة الدراسة في الكليات الجامعية، بسبب عجزهم المادى الذى يحول دون أخذ الدروس الخصوصية التي تسند موهبتهم التي يتمتعون بها. وأحياناً قد يحصل بعض التلاميذ الفقراء على درجات عالية تؤهلهم لمواصلة الدراسة في الكليات الجامعية المتقدمة، ولكنهم يآثرون مواصلة تعليمهم في كليات ومعاهد متوسطة، تكون تكلفتها ومصاريفها مناسبة لإمكانات ذويهم. هذا وذاك من الأسباب المباشرة لنقمة بعض التلاميذ على المجتمع، ولعدم إيمانهم بمنهجية السلام الاجتماعى في التعامل مع الآخرين من جهة، ومع المجتمع نفسه من جهة ثانية.

## (٢) التعامل مع الآخر كمنطلق لتحقيق التواصل التربوى الإبداعى:

بسبب التقدم المذهل في وسائل المواصلات، وفي أساليب الاتصالات، بات من السهل جدا الاقتراب من الآخر، مهما كانت ظروف الزمان والمكان. ومن خلال هذا الاقتراب، نستطيع التعامل معه وجهاً لوجه. ولكن مناهجها التربوية التي يدرسها التلاميذ، لا تحقق هذا الهدف من قريب أو بعيد. ولعل السبب المباشر في فجوة التواصل بيننا والآخرين تعود بالدرجة الأولى إلى ما ترسب في عقل وفكر منظرى ومصممي المناهج، إذ تعتقد نسبة كبيرة منهم بأن هذا التواصل قد يفرض

علينا ثقافة الآخرين، وذلك قد يؤدي إلى اهتزاز أركان ثقافتنا القومية، كما تؤكد نسبة أخرى بأن التواصل مع الآخرين قد يدمر أسلوب حياتنا، لأنه يقودنا إلى ممارسة أعمال العنف والبلطجة، وأحيانا يسهم في تكوين تشكيلات عصابية تؤكد منهجية التطرف والإرهاب.

أما التفسير الغريب والشاذ لرفض التعامل مع الآخر، وعدم دراسته كأحد موضوعات المنهج، فيعود إلى أن التعامل مع الآخر قد يقودنا إلى التفریط في معتقداتنا الدينية أحيانا، واقتلاعها من جذورها في أحيان أخرى.

إن الأفكار السلبية التي تقف كحجر عثرة أمام الانفتاح أمام الآخرين، ترجع إلى عجزنا الفكري عن فهم ظروف العصر ومتغيراته، وتدعو إلى التوقع حول الذات، والخوف - بل قل الرعب - من الآخرين، وذلك يؤدي بالتبعية إلى عجز واضح وفاضح آتيا بالنسبة للانطلاق لتحقيق التواصل الإبداعي التربوي. وللأسف قد يصل هذا العجز إلى المستوى الذي يجعلنا نفتقر لكيفية التعامل مع بعضنا البعض، ونعيش وكأننا في جزر منعزلة، رغم أننا أفراد مجتمع واحد.

إن التحديات الحضارية التي تواجه التلاميذ في الحاضر والمستقبل تتطلب أن نعلمهم أساليب التعامل مع الآخرين من منطق القدرة والفهم العميق لما لديهم، والأخذ والعطاء من مختلف المجالات، وعدم الانغلاق على الذات.

إذاً يجب أن توجه المناهج التربوية جل جهودها نحو تحقيق الإبداعات التالية:

\* الاستفادة الإيجابية من التعامل مع الآخر، من خلال الاحتكاك المباشر معه، دون التفریط في المكونات الرئيسة للذات.

\* إعداد أجيال قوية العقول، تستطيع تحليل ونقد رسائل الآخر، وتتمكن من فهم مقوماتها الصريحة والخفية.

\* المساواة التامة والتكافؤ الكامل بين الأنا والآخر، وبذلك لا يتم فرض إرادة أو هيمنة أو سيطرة أو شروطاً. أحد الطرفين على الآخر.

\* وجود مناخ مناسب للحوار يتعد عن الأحكام والمفاهيم السابقة المغلوطة، وبذلك تنحو المناقشات والمداومات وجهة تعليمية وتربوية، تتسم بالنفعية الصحيحة والمسئولة.

\* إبراز أهمية قيمة الحوار والتفاهم المتبادل في اكتشاف الآخر بدلاً من تحديه، وفي التعرف عليه عن قرب بدلاً من أخذ موقف عدائي يستفزه، وفي التعايش معه بدلاً من الهجوم عليه.

\* الاتفاق على القضايا الحيوية والجوهرية موضوع الحوار، مثل: العدل وحقوق الإنسان والمرأة والديمقراطية وحرية التصرف.

\* تأكيد الموضوعية واستماع الآخر وفق المبادئ والأسس العامة التالية:  
- حقوق الإنسان وتكريمه وحمايته ورفع شأنه.

- ربط وظائف العلم وتطبيقاته بالأخلاق من أجل تحقيق رفاهية وسعادة الإنسان.

- مكافحة التطرف والإرهاب في جميع بلدان العالم.

- النزوع إلى السلام ووقف الحروب بين الأمم والشعوب.

- اعتماد منهجية الأخلاق في التعاملات بين الأفراد والشعوب على السواء.

- إعمار الأرض وتحسين البيئة من حول الإنسان.

- حسن استغلال المال والموارد الطبيعية والبشرية.

- المحافظة على كرامة المرأة، ورفع شأن الأسرة.

- بناء المجتمع النظيف الخالي من الأمراض المعنوية والمادية والصحية.

- التعاون العلمي في ظل ظروف العولمة ومتغيراتها.

- المحافظة على الصحة العامة للإنسان والحيوان، ومقاومة التلوث البيئي.

- توفير الظروف والآليات المناسبة ليستطيع الإنسان أن يتعايش مع البيئة الطبيعية.

(٣) نقد الذات وتشكيل عقل المتعلمين وفق منهجية الإبداع:

إذا كان الاعتراف هو سيد الأدلة في المحاكم، فإنه يمثل في الكتابة أحد معايير الصدق و الموضوعية. ولأن الظاهرة السياسية المصرية لم تنضج، بات من الصعب جدًا الفصل بين الذاتى و الموضوعى، وبين حقوق الصداقة والزمانة، وبين حق التفكير والتعبير، وحق الناس فى أن تقرأ وتسمع وجهات النظر المختلفة التى قد تكون جزءاً من الحقيقة.

إن الذين يجيدون الهتاف وصياغة الشعارات، وأيضا أصحاب الأقوال الطنانة التى بلا معنى أو مضمون - غالبا - لا يتغيرون، ولذلك يستطيع المشاهد من قرب أن يميز تلك الوجوه والحركات والتنغيمات والتنويعات نفسها، لدرجة أنه وبغير مبالغة يستطيع العين الفاحصة أن ترسم فى الذهن صورة نمطية راسخة لـ "الهتيف" الآخر الذى يستمتع بتعمد قطع سياق تفكير المتحدث أو الخطيب ونسف العلاقة التى بدأت تنتظم وترسخ بين جمهور المستمعين وبين المتحدث، بل إن "الهتيف" كثيرا ما يتعمد إحراج المتحدث وإحراج أصحاب الدعوة وأصحاب المكان إذا لزم الأمر! ووصل الحال ببعض "الهتيفة" أن تكون لهم سطوة على التجمعات والأماكن، تستدعى إبرام الاتفاقات معهم قبل بدء الجلسة وتستدعى تقسيم الوقت بين "الهتيفة".

أن تهميش المسألة الاقتصادية - الاجتماعية من دائرة الاهتمام المباشر والتركيز على الإصلاح السياسى، هو أحد الأسباب الجوهرية فى ضيق دائرة الحركة الوطنية واقتصار التعبير عنها على وجوه بعينها كلما قلبنا وجوهنا بأى اتجاه نجد لها أمامنا، ولو أن الذين جندوا جهودهم للإصلاح السياسى وجدوا وقتا ومساحة فى أذهانهم لبقية الجوانب لاستطاعوا توسيع الصفوف وتوليد الكفاءات.

لقد آن الأوان لنا جميعا أن نبتعد قليلا عن القوالب السياسة والفكرية

والإعلامية والتعليمية، وأيضا عن القوالب الإدارية التى تحكم قراراتنا وعقولنا وتحكم فى مصائرنا كذلك.

نحن مازلنا نحتاج إلى الاستمتاع بالتفكير الإبداعى، الذى يساعدنا على سرعة الأداء، والنظام فى العمل، والذى يؤكد بأننا لا نحتاج كذلك إلى رأى موحد طالما يخلو من الشفافية والحكمة. وأيضا، ما زلنا نحتاج إلى مشاريع عملاقة تقوم على أساليب علمية تعتمد على منهجية الإبداع فى العمل لعلاج مشكلاتنا والقضاء عليها. أيضا، من المهم توجيه الإمكانيات إلى نصابها الحقيقى حتى يعيد كل منا النظر فى طريقة تفكيره وأسلوب علمه وحياته. والتفاصيل الخاصة بالإصلاح والتغيير فى كل بلد، تتمحور حول قضيتين، هما:

(١) التعامل الحصيف مع التعدد الأثنى، (٢) القدرة على تحقيق توافق للنخبة السياسية حول مسار الإصلاح، إذ لا توجد دولة فى العالم العربى والإسلامى كله لا يوجد فيها شكل أو آخر من التمايزات الدينية أو المذهبية أو العرقية، والأهم من ذلك تراث يقوم على التمييز بشكل أو بآخر على هذه التباينات. ومن المدهش أنه حتى فى البلدان التى أدعت بقوة من خلال أدواتها الدعائية أنها تقوم على المساواة التامة بين جميع "المواطنين"، فإنها كانت تستند إلى مجموعة اجتماعية لها صفاتها الخاصة بشكل أو بآخر، والتى تتميز به عن بقية السكان.

والأخطر من ذلك، رغم أن هذه الحقيقة واضحة وضوحا تاما، فإنه يجرى إنكارها بشدة، ويعتبر ترديدها نوعا من الوقوع فريسة فى يد الدعايات الاستعمارية، وألعبوبة تحاول تقويض الوحدة الوطنية والقومية فى الدول العربية والإسلامية.

هذه القضية لم يعد ممكنا تجاهلها بالأحاديث عن "السبائك" الملتحمة والعلاقات الأزلية، وإنما على أساس من قاعدة "المواطنة" و "المشاركة" فى مشروع للمستقبل قائم على حرية الاختيار وإبداعاته، فى السوق الاقتصادية والسياسية. وهذا لا يتحقق إلا من خلال عقد سياسى يوفره توافق أركان النخبة عبر الجماعات

والطوائف، وتلك هي القضية الثانية، وتمثل في مفتاح السير في طريق السلامة بعيدا عن طريق الندامة، حتى لا تفرض الدولة بالقوة المسلحة حالة من الانصهار المظهري الوقتي، فهذا الطريق مسدود لا يعود منه الذهاب فيه، إذ إن الوحدة التي تقوم على أيديولوجية دينية أو سياسية تتجاهل عناصر الاختلاف والتميز والهوية وتتوهم أنها وقد امتلكت الطريق إلى السماء يمكنها فرض حلول ناجحة لمشاكل الأرض.

ولعل ذلك يفسر حالة الجمود المستمر في دول كثيرة. ولكن الجمود كما ثبت من التجربة يظل هو أساس الانفراط في المستقبل. ومن المؤلم أن يكون الخيار أمام النخب بين بقاء الأمور على ما هي عليه، أو تركها تنفلت إلى واحد من حالات الفوضى والاحتراب.

إن ما نمر به على طريق المستقبل ليس حالة جديدة على التاريخ. ولا هو حالة استثنائية على العلم، ولا هو حالة خارجة عن السياسة، وما علينا إلا أن نقرأ ونسمع ونتعلم أنه إذا كانت العجلة متاحة أمامنا فلا داعي أبدا لإعادة إختراعها.

ونقد الذات وتشكيل عقول المتعلمين إبداعيا، يقتضى ويعنى أن يكون لدينا شباب متم لوطنه ويعشق ترابه ويعتز بهويته، وذو رؤية عملية بعيدة المدى، ومبدع ومتمكن ولديه تصميم والتزام ودرجة عالية من الكفاءة والقدرة على المشاركة واتخاذ القرارات. بحيث لا يشارك فقط، بل يتفاعل أيضا مع قضايا المجتمع الضرورية والملحة سواء من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية.

و بالنسبة للشباب ومشكلاتهم فإنهم يشعرون بنوع من الغربة بينهم والمجتمع المحيط بهم، ولذلك يجب نقل صوت الشباب لصانعي القرار حتى يمكنهم التعبير عن آرائهم، والتحاور مع بعضهم البعض، في ظل اهتمام القيادة السياسية بمتطلباتهم.

الإحساس بالاغتراب والانفصال عن المجتمع غالباً ما يؤدي إلى الإحساس بالظلم والقهر وعدم الانتماء، والبحث عن بدائل خاصة لدى الفئة المتعلمة متمثلة في الهجرة خارج البلاد، وبالتالي نخسر شباباً متعلماً مثقفاً مبدعاً كان من الممكن أن ينتج ويبدع داخل بلده.

كما لا تتوافر لدى الشباب المهارات الحياتية المختلفة التي تمكنه من المشاركة ويفتقد إلى ثقافة التطوع والمشاركة المجتمعية.

وتتصل كل هذه المشكلات معاً، وتتأثر بالظروف الاقتصادية والاجتماعية، لذا يجب أن يتم التعامل معها على المستوى الاقتصادي أو لا، لأن ذلك هو أولوية الشباب كما يذكرون بأنفسهم في كل مناسبة. ومن خلال التعامل مع تمكين الشاب اقتصادياً، يشعر أن له قيمة حقيقية في مجتمعه الذي احتضنه وأمنه، ويضمن داخلها ويبدأ في المشاركة في الحياة العامة بفعالية أكثر.

إذاً من المهم التحوار المباشر مع الشباب لأنه يمثل أول خطوات التمكين، إذ إن إشراك الشباب برأيه في صياغة البرامج والسياسات، يشعره بأنها ملك له، فيطبقها وهو مقتنع بها.

والتحوار مع الشباب يمكن أن يتم على عدد من المستويات فيمثل الإعلام والتلفزيون بشكل خاص وسيلة أكثر فعالية في الوصول لأكبر نسبة من الشباب لأنه يحظى بنسبة عالية من المشاهدة من مختلف الفئات العمرية والطبقية والتعليمية، وإن كانت الاجتماعات واللقاءات والندوات والحوارات المباشرة هي من أكثر الوسائل نجاحاً؛ لأنها تتيح الفرصة للشباب في أن يعبروا عن رأيهم مباشرة وجهاً لوجه، وأن يثقوا ويتأكدوا من أن هناك من يستمع لهم ويهتم بهم.

وتعكس ثقافة حقوق الإنسان وعياً عاماً يتوزع على كل أفراد المجتمع، ويسرى في سلوكهم. ومن الرائع أنه عندما تقرأ بنود حقوق الإنسان سوف تجدتها متماشية

تماما مع مبادئ الأديان في بلادنا، بل أنها تتوافق تماما مع أعرافنا وتقاليدينا التي استقرت في أعماق الشعب المصري منذ آلاف السنين.

وتؤكد المادة (١٩) من مبادئ حقوق الإنسان حق كل إنسان في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة دون تقييد بالحدود الجغرافية. أما المادة (٢١) فتتيح لكل فرد حق الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده، إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون اختيارًا حرا.

(٤) تأكيد حق معارضة التلاميذ للمدرسين وفق أسس تربوية صحيحة:

يمكن أن يستخدم التلميذ المعارضة للتكيف مع مرحلة جديدة من حياته، أو للتعبير عن قدرته على تحمل المسؤولية بعدما يكتسب استقلاليته، وبذلك تكون المعارضة المسئولة هي طريق السلامة النفسية بالنسبة للتلميذ، فهو يكون في أحوال جيدة سواء أكانت نفسية أم دراسية أم اجتماعية حين يعارض وفق الأسس التربوية الصحيحة.

فالمعارضة هي انعكاس لمرحلة جديدة من حياة التلميذ، تؤكد رغبته في الاستقلالية، وبالتالي، يعيش الأهل بشكل دائم ومنتظم وضعيات، لا بل مراحل، من المعارضة تستمر عموماً إلى أن يستقل ويترك التلميذ المنزل الأسرى. ويحدث التعبير عن المعارضة في المجال أو المجالات المتعددة، التي تتضمن فرض المنوعات (العائلية، الاجتماعية، المدرسية)، والتي تساعد التلميذ على تكوين قواعده الداخلية انطلاقاً من إدراكه الشخصي لهذه المنوعات (وهذا ما يسمى "الأنا العليا").

ومن الممكن أن تكون هذه المعارضة عبارة عن موقف رفض عام، حيث تتواتر الصراعات بشكل يومي، وحيث تتعدد مواضيعها وتنوع. وهنا يمكن التمييز بين شكليين: الرفض الناشط والرفض السلبي / العدائي، وهما غير متماثلين. من حيث الدلالة، أو من حيث المظاهر أو النتائج (أى ما ينجم عنهما من انعكاسات).

فالفرض الناشط، يتم التعبير عنه بـ "لا" واضحة، بيبكاء، بغضب، بعدوانية لفظية... إلخ، ومن مظاهره الأكثر تواتراً نذكر: رفض الأوامر والتعليمات، رفض القيام بالفروض والواجبات، التعبير عن مظاهر غضب مع التلفظ بإهانات، أو مع حركات عنيفة. باختصار، القيام بسلوكيات ظاهرة خارجياً. لكن، تجدر الإشارة إلى أن معظم الراضين الناشطين لا يذهبون بعيداً من حيث المشاكسة والصراع، فهم، غالباً، يجادلون ولذلك يجب التصارع معهم ليقوموا بتنفيذ ما يُطلب منهم.

وما يعيننا هنا المرحلة التي يدرك فيها التلميذ أن المدرسين وإن كانوا غير كاملين، فإنهم نجحوا بأن يصبحوا راشدين. وقد يحاول التلميذ اختبار قوة مبادئهم وطبعهم عن طريق مهاجمتهم، فإن بقوا صامدين وثابتين في مواقفهم، يتخذهم مثلاً له، كى يصبح راشداً مستقلاً مثلهم. غنى عن القول هنا بأن "في كل مراهقة، هناك جريمة"، جريمة رمزية طبعاً، بحق المدرسين لأخذ مكانهم، أو إبعادهم ليصبح التلميذ راشداً ويتمكن من بناء رأيه الخاص به، وهذا ما يفسر حدة مشاهد المعارضة في هذه المرحلة من العمر.

أما الرفض السلبي / العدائي، فيعنى أن يقول الشخص "نعم" بهز الرأس و "لا" بالقلب، فالراضون السببيون العدائيون يتجنبون الوضعيات غير السارة دون الدخول في صراع. رسمياً، هم دائمو الموافقة، لكنهم يتدبرون أمرهم ليفعلوا ما قرروا هم فعله:

\* في البيت: يقولون بأنهم يملّون (يضعرون)، ومع ذلك لا يمكن التحدث معهم إن كانوا يشاهدون التلفزيون مثلاً أو...، كما يوحون بالانطباع أنه يُطلب منهم الكثير تجاه أى طلب يتم توجيهه إليهم، لا يقبلون التعرّف على أخطائهم ويلقون المسؤولية على الآخرين (قد يحلفون، لدى ارتكابهم خطأً إملائياً، أو يدعون بأن الأستاذ هرّ من عملهم بهذه الطريقة).

\* مع رفاقهم: يندمجون معهم، في مرحلة أولى، لأنهم دائمو الموافقة على ما يقال،

وقد يعدون مثلاً، بقرض أشياءهم للرفاق، لكنهم، إن لم يكونوا يريدون ذلك، فإنهم يستنبطون أكاذيب لتبرير عدم جلبهم لها. وأكاذيبهم هذه سرعان ما تؤدي في مرحلة ثانية، لرفض الرفاق لهم حيث تكون ردة فعل هؤلاء قوية بمقدار ما كان تقديرهم الأوّل لهم قويًا.

\* على مستوى التعليم: يعاني هؤلاء عمومًا إخفاقًا مدرسيًا، ويشعرون بالتدنى في احترام الذات، لكنهم لا يفعلون شيئًا لتغيير موقفهم.

هذان النمطان من المعارضة لا يلتقيان إلا نادرًا، لكن التلميذ يلجأ غالبًا لهذا النمط أو ذاك تبعًا للظروف، مثل: الكذب لتجنب تلقي القصاص أو الانخراط الشخصي في عمل ما، الغضب، العدوانية اللفظية أو الرفض الصريح لتأكيد الذات تجاه بعض المفروضات... إلخ. لكن تجدر الإشارة هنا، إلى أن للموقف العدواني الفضل بأنه صريح، حتى وإن كان متطرفًا، إذ يسمح، بعد انقضاء الأزمة، بمناقشة المشاكل التي تمّ عرضها، دون تجنبها أو الابتعاد عنها.

هنا يفرض التساؤل الجوهرى التالى نفسه على المدرسين: حين يعارض التلميذ، ماذا نقول؟ وماذا نفعل؟

لا بد من تبيينهم، لواقع كون المعارضة لا تشكّل سوى الجزء المنظور، نوعًا ما، من المشكلة. فالتلميذ، وخاصة المراهق، يستخدم العديد من الوسائل الملتوية ليعبر عن سوء حالته (ليقول إنه ليس على ما يرام)، فهو يتخيل، عن خطأ أو عن صواب، أن الأهل يفهمون ألمه النفسى بشكل غير صحيح إن عبر عنه، مثلاً، عن طريق الجسد. وهنا يحدث الخطر الأكبر، إذ قد يتم التركيز على الأعراض الظاهرة أو قد يتحقق حوارًا أو عراكتًا حول هذه الأعراض السطحية للمعارضة، في حين يبقى الاضطراب الأكثر عمقًا خارج الإطار فيزداد خطورة... إلخ.

لذا يجب على الأهل أولاً تقييم الوضعية: هل هي سوية أم غير سوية؟

بمعنى آخر يجب أن يكونوا قادرين على التمييز بين السلوكيات السوية (أى المتلائمة مع متطلبات مراحل النمو) وبين السلوكيات المثيرة للتساؤل، وهذا ما يتطلب منهم تعلم الملاحظة والتقاط بعض مؤثرات الصحة النفسية، أى معرفة: ما السلوكيات التى يجب أن تشغل بالهم؟ وما السلوكيات التى تعتبر عادية بالنسبة لنموهم؟ يشكل ذلك، فى الحقيقة، أول مرحلة فى برنامج التغيير الذى يجب وضعه، وخاصة أن السلوك يمكن ملاحظته وقياسه (مثلته مثل حرارة الجسم).

وباختصار، نقول: تجاه سلوك التلميذ، سواء أكان سويًا أو جانحًا، على المدرسين طرح الأسئلة الثلاثة التالية على أنفسهم:

- هل يقدرّون - على المستوى النفسى والعاطفى - على تحقيق ما يطلبه التلميذ منهم؟

- وبالنسبة للتعليمات التى يوجهونها للتلميذ، هل هى دقيقة وواضحة بشكل كافى تكون قابلة للتطبيق؟

- ومواقف التلميذ و / أو المراقق، هل هى مواقف رافضة واضطرابية، أم أنها ببساطة تعبير عن عدم قدرته على احتمال الإحباط؟

وقدرة المدرسين على قياس المشكلة تؤكد أن التلميذ قد فهم التعليمات، وأن موقفه يعكس ببساطة وجود مشكلة، فكيف يقيسونها؟

(١) عن طريق تحديدها بشكل دقيق، أهى سلوك معارضة مثلا؟ يجب، من ثم، تحديد تواتر هذا السلوك، باليوم، بالأسبوع وحسب الفئة (مثلا الغضب: تعداد كل التعابير الخاصة به من: بكاء، زم شفاه، صفق أبواب... إلخ)، وبالإمكان رسمه على منحنى يمثل عدد حالات الغضب بالأيام، وإن كان هناك أكثر من مشكلة، يتم تحديدها كل منها بمفردها (وبالطريقة نفسها).

(٢) تقييم الدرجة أو الحدة (درجة الغضب مثلا) على سلم من صفر: ١٠٠

(حيث يمثل الصفر أدنى الدرجات والمائة أقصاها)، (مثال: اليوم، نهار الثلاثاء، الوضعية: غضب عند النوم، الحدة: ٧٥٪). ويُمكن هذا التقييم المدرسين ليكونوا أكثر موضوعية، كما يجنبهم القيام بردّات فعل حادة (من نمط الكل أو لا شيء، مثلا).

(٣) وصف وضعية (أو وضعيات) المعارضة: حيث يتم تحليل وظيفة السلوكات، وهذا ما يسمى بـ "التحليل الوظيفي أو الوظيفي"، أى للبحث عن وجود علاقة سببية محتملة بين سلوك معين وبيئته، أى ما يسمى "المثيرات السابقة" للسلوك الذى يمثل مشكلة، (مثال: قد يلاحظ الأهل، مثلا، أن الولد يرفض القيام بفروضه المدرسية بسبب إذاعة برنامج التلفازى المفضل، لكنه يطيع حين ينتهى البرنامج أو أنه يرفض القيام بفروضه فى كل الأحوال، أو... إلخ).

(٤) تقييم انعكاسات المشكلة: فالسلوكيات، كما بحال وجود حرارة مرتفعة، ينبغى تقييمها، وذلك على أربعة مستويات: (١) مستوى تأثيرها على التلميذ شخصيا (يبدو تعيسًا، دائم الشكوى، ولديه انطباع بأنه غير محبوب ولا أحد يفهمه، ويحس بالضجر، وكل ما يفعله الأهل لا يرضيه... إلخ؟) (٢) مستوى تأثيرها على عطائه المدرسى، حيث ينخفض هذا العطاء عمّا كان عليه فى السابق فى مادة معينة وأحيانا بشكل عام ومن المهم جدا ملاحظة: هل يشارك فى الصف أم لا؟ هل يقوم بحل واجباته؟ ... ثم مناقشة ذلك معه ومع المعلم. المهم، عدم الدخول فى صراع معه، بل البقاء فى حالة يقظة دائمة يمكن معها التدخل عند الحاجة (هذا يسمى بـ "الحياة المرحب")، (٣) مستوى تأثيرها على الناحية العلائقية، فالقدرة على إقامة علاقات اجتماعية مع الآخرين (وتسمى "تطور الاجتماعية")، هى بأهمية الناتج المدرسى نفسه: أعلاقته بالآخرين، زملاء الصف بوجه خاص، جيدة أم أنه يعزل نفسه؟ وصدقاته، أهى محصورة جدا؟ ينبغى سؤال المعلمين عنه وتسجيلها، على دفتر خاص ليشكل ذلك ركيزة كل مناقشة معه، وركيزة اتخاذ القرار فيما بعد، (٤)

مستوى تأثير سلوكيات التلميذ على رد فعل والديه: كم ساعة تشغل المشكلة اهتمامهم في اليوم؟ ما درجة تأثرهم حين يطلبون منه القيام بشيء معين؟ لأية درجة يخافون الصراع؟ وما الذى تستغرقه العراكات والمشادات بينهم وبينه على حساب إخوته الآخرين، العلاقات الزوجية، استمرار العائلة في إقامة علاقات اجتماعية ناجحة، ... إلخ؟

تتم مناقشة هذا التقييم، مع الطفل أو المراهق، مما يسمح له بوعى نتائج سلوكه، ولذلك أهمية قصوى إذ يشكل هذا التقييم ركيزة الحوار التواصلى بين الأهل وبينه. وقد يؤدي ذلك لتحقيق حوار حقيقى يهدف مناقشة، وفهم أصل وأسباب الصعوبات التى يواجهها الطفل أو المراهق، ومن ثم، يمكن التفاوض معه على الوسائل الكفيلة بإحداث تغيير فى سلوكه.

لاختصار هذه المرحلة الأولية والأساسية فى أى تعامل بين المدرسين والتلاميذ و / أو المراهق ذى المشكلة التى تكمن فى القيام بقياس دقيق بالنسبة للأمور المزعجة فى سلوكه بما يساعد على تأمين رؤية موضوعية وحيادية لهذه المشكلة، لذلك يجب تأكيد وجود فترات مهمة على مستوى التقييم، تتمثل فى:

- تحديد دقيق للسلوك / المشكلة.
  - تقييم درجة حدة السلوك وتواتره.
  - تحديد العلاقة النسبية: سبب / نتيجة (الوضعيات المعززة لظواهر المشكلة).
  - قياس مستوى وعى (أو إدراك) الطفل أو المراهق لهذه العلاقة كمشكلة.
- والخطوة أو المرحلة الثانية: التشخيص، أى تحديد ما إذا كان السلوك مرضياً أم لا، وهل استشارة الأخصائى ضرورية؟

بعد استقاء المعلومات المتكاملة بخصوص المشكلة، التى تشغل البال، يصبح بالإمكان تصنيفها ضمن الإطار السوى أم ضمن الإطار المرضى، وهنا، لابد من العودة إلى محكات معينة نلخصها كالتالى:

التواتر: يبقى السلوك سوائياً طالما ظهر بشكل متقطع وعابر، مهما كان متطرفاً، ويكون مرضياً حيث يظهر بتواتر (أى ظهر سابقاً وما زال مستتباً).

الوقت: يستمر السلوك لمدة تتراوح بين شهرين إلى ستة أشهر، وبشكل واضح؟ (يبدو السلوك مرضياً)

الحدة: إذا بقى الانزعاج والانفعالات الناجمة عن السلوك المتطرف محتلاً، فالسلوك يكون سوائياً، لكن حين يسيطر الألم النفسى على الطفل أو المراهق، بمعنى أنه حاد ومكثف، والانزعاج مسيطر عليه، بحيث لا يستطيع الفرد أن يتحدث عن حالته، فالسلوك يكون مرضياً.

تطور السلوك: يبقى السلوك المتطرف محصوراً بقطاع معين ثم يختفى. وفي هذه الحالة يكون السلوك سوائياً، وعلى العكس، إذا امتد السلوك لسلوكيات أخرى (أى يشمل قطاعات أخرى جديدة) لا يفهمها المحيط (أى البيئة المحيطة بالفرد) يكون السلوك مرضياً.

وقع (أو صدى) السلوك: إذا كانت طاقات الطفل أو المراهق وقدرته على التكيف الفكرى، والاجتماعى، والعاطفى ... إلخ، لا تتأثر سلباً (أى لم يحدث فيها تعديل سلبى)، فى هذه الحالة يكون السلوك سوائياً. على العكس، عندما يبدى الفرد صعوبات تكيف مع وضعيات الحياة اليومية، ويجد صعوبة بإدارة المعلومات الجديدة التى يتلقاها، يكون تطوره النفسانى مضطرباً، بمعنى يكون سلوكه مرضياً.

الأسباب: يختلف الوضع إن ظهر السلوك إثر أمور أو فى حالة وجود أحداث معينة قد تبرر حدوثه، إذ يكون بمثابة رد فعل طبيعى على الموقف المعيشى. لكن فى كل الحالات، من المتوجب معرفة الأسباب لإدخالها كجزء لا يتجزأ من خطة تعديل السلوك غير المتكيف.

التواصل مع الآخرين: من المهم معرفة إجابة دقيقة عن السؤالين: هل يتعطل

التواصل مع الآخرين؟ وأيضا التواصل العفوى بين مختلف أفراد الأسرة (أى الدينامية العائلية) هل يتعطل؟ ينبغى التعرف على ذلك.

والسؤال الذى يفرض نفسه: كيف تستخدم هذه المحكات؟

(١) ينبغى ملاحظة التلميذ أو المراهق ومحاولة الكشف عن السلوكات غير المتكيفة التى تبدو متطرفة، ثم التحقق منها بسؤال أشخاص آخرين (أفراد العائلة الموسعة، الأصدقاء، الوسط المدرسى ...)، وأخذ عجز أشخاص من خارج الأسرة عن تحمل هذه السلوكيات كمعيار للحكم.

(٢) ملاحظة كل سلوك انطلاقاً من المحكات المذكورة (تواتر السلوك، استمراره، درجة الألم النفسى الناجم عنه، امتداده لقطاعات أخرى، عدم التكيف مع وضعيات الحياة ...)، وتقييم درجة الانزعاج التى يثيرها السلوك عند الطفل أو المراهق خلال اليوم.

(٣) ملاحظة الأهل درجة احتمالهم لهذا السلوك (و / أو السلوكات) وخصوصاً مقارنة موقفهم مع مواقف أولئك الأشخاص الذين تم سؤالهم سابقاً بهذا الخصوص.

(٤) إذا كانت درجة عجزهم عن تحمل هذا السلوك (أو السلوكات) مسيطرة، أو إذا كانوا يتحملونه كسلوك والآخرين لا يتحملونه، عليهم الاستعلام (بقراءة كتب متخصصة، و / أو سؤال ذوى الخبرة، و / أو التحدث عنه مع الطبيب فى أول زيارة له أو مع طبيب المدرسة) للتمكن من تقييمه بدقة عند ولدهم.

(٥) إن كان التواصل مع الطفل و / أو المراهق لا يزال ممكناً، والمدرسين أنفسهم ليسوا مصابين بدرجة مرتفعة من القلق نتيجة ما اكتشفوه، بإمكانهم إذن معالجة الموضوع مع التلميذ فى الوقت المناسب الذى يختارونه لتقييم درجة تألمه ووعيه (أى إدراكه) للمشكلة، ولتحسيسه وتهيئته لخطة العلاج التى سيتم

تحديدها في ضوء التشخيص الذي قاموا به، أو الذي أشار إليه الاختصاصي عند استشارته، وعليهم المشاركة بالعلاج.

ويجب أن يعمل المنهج على مقابلة السلبيات الناجمة عن معارضة التلاميذ للمدرسين للتعبير عن آرائهم ووجهات نظرهم، حتى وإن تحقق ذلك بطريقة سافرة عن طريق تحقيق الإجراءات التالية:

- \* يتجنب المدرسون، قدر المستطاع، الدخول بصراع من التلميذ أو المراهق، وإن اضطروا لذلك، عليهم وقف العراك بأسرع ما يمكن لأنهم الخاسرون مسبقًا.
- \* لا يجب عدم شعور المدرسون بالذنب، لأنهم ليسوا عرافين، ناهيك عن أنه مع أفضل إرادة بالعالم، تبقى الصراعات موجودة ومستمرة.
- \* لا ينسب المدرسون الصراع لأنفسهم، فالتلميذ يحاول بكل بساطة، اختبار حدوده أو رؤية إن كان بإمكانه تسييرهم.
- \* تقبل المدرسون الإخفاقات، فهم ليسوا كاملين (لا وجرّد لإنسان كامل، كما لا وجود لطفل أو مراهق كامل).
- \* يفسر المدرسون موقفهم مرة واحدة ولا يدخلوا في جدال مع التلميذ، فإنهم الخاسرون مسبقًا.
- \* يتقبل المدرسون إحباط التلميذ ويساعده على إظهار بعض ملامح إحباطه، فالتعبير اللفظي وغير اللفظي يساعده كثيرًا على التنفيس عما يعتمل بداخله ومن ثم، على الارتياح.
- \* لا يكثر المدرسون من استخدام القصاصات، وعلى العكس، يجب عليهم استخدام التدعيم والتركيز على السلوكات الإيجابية والمتكيفة التي يقوم بها التلميذ.
- \* لا يحس المدرسون أنهم وحدهم من يواجه مثل هذه الصعوبات، وأنهم

مستولون عن كل سوء يحدث، ويحاولوا مناقشة ذلك مع آخرين (خصوصًا الصادقين منهم)، فسرعان ما يتبين لهم أنهم يواجهون المشاكل مع التلاميذ (استغلال الفرصة وتبادل الخبرات فيما بينهم إذ من شأن ذلك مساعدتهم على مواجهة الصعوبة بتقاسمها مع الآخرين، وبالاغتناء مما يقدم لهم يتم تبادل الخبرات فيما بينهم).

\* الملاحظة دون تأويل، وأخذ الحذر من الانفعالات وردود الفعل (اللفظية وغير اللفظية).

\* استعادة التواصل مع التلميذ، فالصراع والشجار يحولان دون ذلك، أما الحوار الهادئ فيؤمنه.

\* إيجاد مجال ثانٍ للتفاهم فيما بعد، إذ من الأسهل دائمًا فهم الأمور بعد أن تهدأ حالة الشد والجذب.

\* عدك سماح المدرسون لأنفسهم أبدًا للاعتقاد بأنهم مربون سيئون، وعدم ترك الفرصة لهذا الاعتقاد، ليسيّط على أذهانهم.

\* اعتبار، منذ البداية، أن السلوك (سلوك المعارضة خصوصًا) هو مؤشر إيجابي على الصحة النفسية للتلميذ، لأنه عندما يعبر عن وجهة نظره التي قد تتعارض مع وجهة نظر المدرس، يصبح أكثر استقلالية وتتطور شخصيته. ودور المدرسين - هنا - يكمن في رعاية هذا النمو والتطور المحققين عنده وتأمين الإطار السليم لهما.

\* أخذ الوقت الكافي لتقييم النصائح الموجهة إلى المدرسين أنفسهم، إذ ليس من السهل تطبيقها ضمن الإطار اليومي، فقد يشعرون، في أحيان كثيرة، أن الأحداث تتجاوزهم (وهذا أمر طبيعي)، لكن عليهم الثقة بأنفسهم وتذكر دائما أنهم ليسوا وحيدين، وإن الوقت يجري لمصلحتهم.

\* عدم التردد أبدًا في استشارة الأخصائي حين يحسون بأن الأمور تتجاوزهم، فكلما جاءت المعالجة بشكل أبكر كان الحل أسرع، وإمكانات الشفاء أكبر وأفضل، حتى لا تتفاقم الأمور أو تتأزم الأحوال.

خلاصة القول:

يوضح الحديث السابق أن البنية الاجتماعية يمكن أن تكون المنطلق لتحقيق أهداف المنهج المعاصرة. وقد نعتنا هذه الأهداف بوصف المعاصرة لسبيين، هما: (١) لا ترتبط هذه الأهداف بالجانب المعرفي التحصيلي بطريقة مباشرة، مثلما يحدث مع غالبية أهداف المنهج في صورتها التقليدية، (٢) توأكب هذه الأهداف عصر العولمة، وتتناهى مع ظروفه ومتطلباته، وتعكس حقيقة مجتمع المعرفة، وتؤكد أننا نعيش في عصر التدفق المعلوماتي، إذ إنها تتمحور حول السلام الاجتماعي، والتعامل مع الآخر، وتشكيل العقل الإنساني، وتأكيد التعبير عن الذات من خلال المعارضة المسئولة.

لقد قدمنا أربعة أهداف إبداعية فقط، ولكن ذلك ليس نهاية المطاف بالنسبة لمسألة دور المنهج التربوي في بناء الإنسان المبدع. لقد بدأنا فقط، وأعطينا إشارة خضراء تدل على إمكانية أن يكون للمنهج التربوي دوره المبدع في تطوير الحياة الإنسانية ذاتها، إذا تم تطوير أهدافه بما يتوافق مع ظروف ومتطلبات العولمة. وهذه الإشارة نفسها قد تكون حمراء إذا تقاعسنا أو تأخرنا في النظر بعين الاعتبار إلى المنهج نفسه وإلى أهدافه، بما يواكب ويتماشى مع تجليات عصر التدفق المعلوماتي الذي يضع الاهتمام بالإنسان في موقع الصدارة.